

القسم الاول

صفات النفس

الباب الاول في تعريف النفس وما يتعلق به

النفس والعقل والروح والقلب الفاظ مختلفة ولكنها تارة تكون متحدة المعنى فتزد ككها على شيء واحد ومعنى واحد وهو — سر الهى لا يعلم حقيقته الا الله تعالى — متعلق بالانسان تعلقاً معنوياً ليدبره في أموره ويسلك به الطريق القويم والصراط المستقيم . والى ذلك المعنى يشير قول الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) فذلك السر الالهى يسمى نفساً وعقلاً وروحاً وقلباً . وتارة تكون هذه الالفاظ مختلفة المعانى فيطلق كل لفظ منها على معنى يفاير الآخر فالنفس تطلق على مجموع الشهوة والغضب وهذه هى النفس الشريرة عند الصوفية . والعقل يطلق على العلوم والمعارف . والروح تطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة وهذه يتعلق بجثها غرض الاطباء . والقلب يطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل الموجودة في الجهة اليسرى من الحيوان والانسان

ومن هذا يتضح لك أن لكل لفظ من هذه الالفاظ معنيين فالنفس تطلق على ذلك السر الالهى الذى لا يعلم حقيقته الا الله وتطلق على مجموع الشهوة والغضب . والعقل يطلق على ذلك السر الالهى وعلى العلوم والمعارف . والقلب يطلق على ذلك السر ويطلق على قطعة اللحم الصنوبرية الشكل . والروح تطلق على ذلك السر وتطلق على القوة المادية التى بها الحياة والحس والحركة . فاذا سمعت قول الله تعالى (وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء) أدركت أن معنى النفس هنا هو مجموع الشهوة والغضب لانهما هما اللذان يأمران المرء بالسوء ويسوقانه الى العصيان . واذا سمعت قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية) كان معنى النفس هنا ذلك السر الالهى الذى خلقه الله في الانسان ليهديه الى سواء الصراط . واذا سمعت قول الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فهمت منه أن معنى القلب فى الآء هو ذلك السر الالهى لاقامة اللحم الصنوبرية الشكل وهكذا كلما ذكر القلب فى كتاب الله أو سنة رسوله فانه يراد منه ذلك المعنى الا أن يعبر بقطعة اللحم ويراد منها السر المتعلق بها

وظيفة العقل والبدن

إذا علمت ذلك تبين لك أن الانسان ليس هو مجرد الجسم المركب من الدم واللحم والعظام والعناصر المختلفة المادية لأن ذلك قدر مشترك بينه وبين سائر الحيوان وإنما الانسان هو مجموع امرين أحدهما ذلك الجسم المادى والآخر معنى زائد عليه يمتاز به الانسان عن الحيوان وذلك المعنى هو السر الالهى الذى تقدم لك الكلام فيه وقد تضاربت الأفهام فى تصويره واختلف الناس فى بيان حقيقته ولكنهم حتى الآن لم يهتدوا الى بيان مستند الى دليل مادى يدل على حقيقة ذلك السر الذى به الادراك والتفكير على أن القدر الذى تستريح له النفس من ذلك هو أنه امر مجرد عن المادة متعلق بذلك الجسم المادى تعلقاً معنوياً. والمجرد عن المادة يعجز العقل عن ادراك حقيقته وماهيته وإن عرفه بخواصه ومزاياه. على أن يميزات الانسان كلها فى الحقيقة مبنية على وجود ذلك السر الذى به الادراك والتفكير فبالعقل يكون الانسان محلاً للدح والدم وأهلاً للطالبة بالواجبات الدينية والتكاليف الشرعية وغير ذلك من شؤون الحياة الدنيوية والآخروية لهذا جعل الله له سلطة كاملة على البدن فلا يعصى له أمراً ولا يخالف له نهياً فان قال للبدن تحركى فعلت وإن أمر الرجل بالمشى أجابت وإذا قال للعين اغمضى أطاعت. وإذا قال للسان تكلم فعل وهكذا سائر أعضاء البدن فانها جنود مسخرة للعقل بتصرف فيها كملك مطاع لا يرد أمره. على أن له أعواناً تساعد على تدبير مملكته الجسم على الوجه الأكل حتى يقطع مراحل الحياة آمناً من الخطر. فان أحسن تدبير مملكته وسلك السبيل التى سنّها الله له فقد نجح. وإن أساء التدبير وحاد عن جادة الصواب واستسلم لعوامل الفساد كان من الهالكين. من ذلك تعلم أن وظيفة العقل هى الهيمنة على سائر أعضاء الجسم وأن وظيفة الجسم إنما هى الطاعة العمياء للعقل فى تصرفه

أعوان العقل

تنقسم أعوان العقل إلى قسمين قسم يشترك فيه الانسان والحيوان. وقسم يختص به الانسان فأما الأول فهو ثلاثة أمور: الأول قوة الحواس كالبصر والشم والذوق واللمس والسمع. ويتبع هذه الحواس الخمس قوى مخلوقة فى الدماغ كالخيال والحافظة فان الانسان بعد رؤية الشئ يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال. ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب القوى الحافظة ونحو ذلك مما لا تعلق بشرحه غرضنا الآن. ووظيفة هذه الحواس ادراك الأشياء وترقبها

الثاني قوة الشهوة والغضب . وتلك القوة من أخطر القوى على العقل لأنها تنازعه دائماً ملكته وتريد أن تغلب عليها دونه فإذا لم يستعملها فيما خلقت لأجله ضاع ملكه وخسر تقوده وعرض نفسه للشقاء في الدنيا والآخرة . ووظيفة هذه القوة التي خلقت من أجلها هي الحث على جلب النافع ودفع الضار فالذى يحث على جلب النافع إلى البدن هي الشهوة . والذى يحث على دفع الضار عنه هو الغضب .

فالشهوة تدفع أعضاء البدن إلى طاعة العقل فيما يأمر به من العمل للحصول على ما يرفع الألم ويحصل اللذة مهما كان العمل صعباً شاقاً . وكذلك الغضب يهتاج بالاعتداء على العرض والمال والنفس والدين فيدفع الأعضاء للبطش بالمعتدى ومقاومة عدوانه طوعاً أو أمراً العقل ولو لذلك هلك الإنسان كما سيأتي في باب الغضب . تلك هي وظيفة قوة الشهوة والغضب الحقيقية وذلك هو حدهما الذي يطلبه الله من الإنسان فإذا سمح العقل لها بالطغيان ومجاوزة الحد الذي رسمه الله لها فقد عرض نفسه للهلاك والردى وأصبح إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان فإن تغلب عليه الغضب كان شبيهاً بالحيوان المفترس . وإن تغلبت عليه شهوة البطن والفرج كانت شبيهاً بالبهايم الأخرى التي لا هم لها إلا مل بطونها وقضاء شهواتها من ذلك تنشأ الجرائم وترتكب الموبقات كما سيأتي مفصلاً فإذا فقد الإنسان حية الغضب فلم يتأثر للاعتداء على دينه أو عرضه أو ماله كان جباناً وإذا فقد الشهوة كان جماداً والكمال في أن يستعملها فيما خلقت لأجله وذلك هو الخير والسعادة في الدنيا والآخرة .

الثالث هو القدرة وهي القوة المنبثقة في سائر الأعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار ووظيفتها تحريك العضلات إلى تحصيل ما يراد منها تلك هي أعوان العقل المشتركة بين الإنسان والحيوان فإن الحيوان لديه قوة الحواس وقوة الشهوة والغضب والقدرة . فالشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلها ففتر منه كما يرى الإنسان عدوه فيحتاج غضبه فيدفع عن نفسه .

وأما القسم الثاني وهو ما يختص به الإنسان دون الحيوان فهو العلم بالأمور الدنيوية والآخروية والحقائق العقلية والإرادة فإن ذلك من خصائص الإنسان وحده كما سيأتي فإن الحيوان مهما أتبح له من التعلم لا يستطيع أن يدرك المعاني السكينة الدقيقة التي يدركها العقل الإنساني بل كل مدركات الحيوان ترجع إلى الحواس الظاهرة والباطنة فقط فلا يستطيع أن يقيس ما غاب عنه على ما حضر لديه . ولا يمكنه أن يستنتج من المقدمات النظرية شيئاً بخلاف العقل الإنساني . أما وظيفة العلوم والمعارف الدنيوية والآخروية والحقائق العقلية فهي مساعدة العقل على سلوك سبيل السعادة والبعد عن طرق الشقاء فمن تعلم ماله وما عليه في حياته وأدرك ما يضره وما ينفعه في دنياه وآخريته وعرف حقائق الأمور فوقف عند حدها فقد حصل على أكبر عون للعقل على كسر الشهوة والغضب فإن الزاني مثلاً إذا أدرك سوء مغبة الزنا من ضياع نسله وهتك عرض غيره وما يتبع ذلك من ضياع المال وتعرض للأمراض القاتلة ومن وراء ذلك عذاب الله وغضبه اطاع العقل في الكف عن الزنا وكذلك المريض الذي يعلم أن الأكل يؤذيه وقد يذهب بحياته فإنه يطيع العقل في الامتناع عن الأكل . وهكذا . وكذلك الغضب فإنه إذا احتاج وقف العلم أمامه فألزم صاحبه أن لا يخرج عن الحد الذي سنه له الدين وتطلبته منه البيئة التي يعيش فيها فلا يخرج عن

طوره ولا يدفعه الى اتيان ما يخل بمروءته وشرفه . ولا يسوقه الى ظلم أحد من خلق الله . ولا يذهب به الى مجازاة الاشرار والفجار . ولا يفضي به الى الحقد . والحسد . والغية . والنيمة وغير ذلك من الأخلاق الفاسدة التي تترتب على طغيان الغضب وخروجه عن الحد الذي خلقه الله من أجله كما ستعلمه في مباحث الغضب فالعلم والتفكير خير سلاح للعقل يحارب بهما الشهوة والغضب ويوقم ما عند حدتهما فلا يخرجان عن وظيفتهما التي خلقا من أجلها وهي المعونة على تحصيل الحلال الطيب من اللذات . والحث على الدفاع عن النفس . والعرض . والمال . والدين . فاذا استطاع العقل أن يفعل ذلك فقد سلبت مملكته من الأخطار وقطع مراحل الحياة آمنة مطمئنا . وعاش عيشة راضية مرضية . لا يكون لأحد عليه تبعة ولا يخاف بعد ذلك عقابا فان الله تعالى يكون راضيا عنه ومن برض عنه ربه فلن يشقى أبداً

الاصول التي تتفرع عليها صفات النفس

قد علمت أن الانسان مركب من جسم مادي وروح مجردة عن المادة وهو بذلك التركيب البديع قد اجتمعت فيه الصفات النباتية . والحيوانية . والربانية . والملكية . والشيطانية . فهو من حيث يتغذى ويتناسل نبات . ومن حيث الحس المحصوص والحركة بالاختيار حيوان — ومن لوازم الحيوانية الشهوة والغضب — ومن حيث العلم والمعرفة بحقائق الاشياء ملك ورباني . ومن حيث اجتماع الشهوة والغضب مع التمييز شيطان لأنه يستعين على قضاء شهوته بالحيلة والمكر كالشيطان . ومن هنا يتبين أن أصول صفات النفس اربعة السبعية . والبيمية . والشيطانية . والربانية فاذا غلب عليه غضبه التحق بالسباع والحيوانات المنترسة فأصبح شرسا يفعل كما تفعل السباع من العداوة والبغضاء والتعدى على خلق الله بالسب والضرب والايذاء وغير ذلك . واذا غلبت عليه شهوته التحق بالبهايم التي لا هم لها الا مل بطونها وقضاء شهواتها فأصبح شرها في ما كله ومشربه شبقا تدفعه شهوة الفرج الى ارتكاب الفواحش . واذا غلبت عليه صفة الربانية فانه ينبعث الى معرفة حقائق الاشياء والوقوف على المعلومات الدينية والديوية وتلك هي خاصية الانسان التي امتاز بها على الحيوان وشابه بها الملائكة المقربين . فالعلم هو أجل معنى يوجد في الانسان وأحسن معين للعقل على قهر الشهوة والغضب كما سبق ولولا العلم ما خاق الانسان . ألا ترى ان الله سبحانه وتعالى قال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فلما علم سبحانه آدم اسماء الكائنات ومسمياتها وسأل الملائكة عنها فعجزوا عن الاجابة وسأل آدم فأجاب أدرك الملائكة أن النوع الانساني يمتاز بصفة العلم وأن من كان هذا شأنه فهو جدير بالوجود والبقاء مهما ترتب على وجوده من المضار لان منفعة العلم وحدها ترجح على كل ما يحيط بها وأفضل العلم ما كان موصلا لسعادة الدنيا والآخرة وما كان سببا في ضبط الشهوة والغضب وعونا للعقل على اتباع سبيل الدين وسلوك طريق المهتدين

على أن صفة الربانية الموجودة في الانسان لها طغيان أيضا فقد يعدو الانسان طوره وتحمله تلك الصفة على ادعاء ما هو خاص بالله وحده فيدعى الاحاطة بجميع المعلومات وينقض اذا نسب اليه الجهل في أمر من الأمور مع أن الاحاطة بجميع المعلومات مختص بها الله وحده اما الانسان فانه مهما أوتي من العلم فلا يصل إلا إلى القليل منه قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومع ذلك فقد يعجز عن إدراك أوضح الحقائق وأيسر الأمور وربما جهل ما هو بديهي عند غيره وذلك آية النقص وعلامة الحدوث فيجب أن يتنبه العقل لذلك ولا تحمله صفة الربانية على الغرور وادعاء مالا يقدر عليه ولم يخلق لأجله فاذا لم يتنبه لذلك فانه يتصف بكثير من الصفات الذميمة كالغرور وانكار الحق والجهل بكثير من الحقائق وغير ذلك

كذلك قد تحمله صفة الربانية على حب الاستيلاء على الناس وقهرهم واستعبادهم والتفرد بالرئاسة والاختصاص بالأمور الى غير ذلك مما هو مختص بالله وحده فذلك أيضا مما يجب التنبه له والوقوف عند الحد المقدور عليه للكن وترك ما هو من اختصاص الواجب ورحم الله من قال — لكل امرئ من الناس حدة وهلاك القتي جواز الحدة —

تلك هي أصول صفات النفس وينفرع عليها كثير من الصفات الذميمة فيتنفرع على طغيان صفة الشهوة اللازمة للحيوانية كثير من الصفات الفاسدة ومن هذه الصفات الوقاحة . والحبث . والتبذير . والتفتير . والرياء . والتهاك . والمجون . والعبث . والجشع . والملق . والحسد . والحقد . والشتم . ويتفرع على طغيان الغضب كثير من الصفات الذميمة أيضا ومنها التهور . وتحقير الناس . والاستخفاف بهم . والاعتداء عليهم ظلما . وإرادة الشر . وغير ذلك ويتفرع على طغيان صفة الشيطانية المكر . والخداع . والحيلة . والدهاء . والجراة . والغش . والتليس . وتضليل الناس . والتفجير بهم . وغير ذلك . وكل هذه الصفات تتعاق بالنفس وتتراكم عليها فتصير طابعا يحول بينها وبين معرفة الله تعالى وإدراك حقائق الأشياء على وجهها وإلى ذلك الإشارة بما رواه ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال « الطابع معلقة بقائمة عرش الله عز وجل فاذا انتهكت الحرمة وعمل بالمعاصي واجترأ على الله بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا » رواه البزار والبيهقي . وذلك لأن العقل هو الملك المتصرف في جميع الجوارح والمسيطر على كل الحواس الظاهرة والباطنة فيجب أن تكون لديه الوسائل الكافية لتنفيذ أمره ونهيه والمحافظة على مملكته فاذا أهمل الوسائل التي يستعين بها على ذلك وتقهقر أمام شهوته وغضبه فان المعاصي تتراكم عليه وتنطبع فيه كما ينطبع الخاتم فيفقد الصفة التي خلق من أجلها وهي تدبير البدن والسير به في سبيل النجاة ولم يعد يعقل شيئا من واجبه الذي يجب أن يكون عليه وانعكست عليه القضية فأصبح محكما بعد أن كان حاكما . مملوكا بعد أن كان ملكا . خادما بعد أن كان سيدا ولا هم له بعد ذلك الا استنباط الحيل في مرضاة شهوته وغضبه . ولا تفكير له إلا في تحصيل ما يتطلبه منه لايبالي بنصيحة ناصح . ولا ينظر إلى موعظة حكيم . ولا يسمع لداع إلى هدى . ولقد صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قال انه لا يعقل

شيء : (أ) وذلك هو الظلم البين والفضلال البعيد . قال تعالى : (أن لو نشاء لأصباهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) وقال : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)
 أما إذا تنبه العقل من أول الأمر واستعمل العلم والحكمة في ضبط شهوته وغضبه ووقف لها بالمرصاد فلا يسمح لها بمجاوزة الحد الذي خلق له فإنه يكون انسانا كاملا متصفا بأحسن الصفات وأجل الأخلاق إذ يترتب على ضبط شهوتي الفرج والبطن . العفة . والقناعة . والهدوء . والتقوى وحسن الهيئة . والحياء . والظرف وغير ذلك من مكارم الأخلاق . ويترتب على ضبط الغضب والوقوف به عند الحد الواجب من الدفاع عن العرض والنفس والمال والدين وما في حكم ذلك صفة الشجاعة . والكرم . والنجدة . وضبط النفس . والصبر . والحلم . والاحتمال . والعفو . والثبات . والشهامة . والوقار . وغير ذلك . ومثال العقل في ذلك كله مثال المرأة . وآثار الشهوة والغضب كالدهان الذي يتصاعد إليها فيطمس نورها وآثار العمل بالعلم والحكمة كالمعدن الذي يحلوها ويزيد في صفاتها والمرء إما شقي فتغلب عليه الشهوة والغضب فيكون من الهالكين . وإما سعيد فيتغلب عليه العقل والحكمة فيكون من الناجين

الوساوس التي تعرض للنفس

ومما يجب على العقل أن يتنبه له ويكون دائما على حذر منه تلك الوساوس النفسانية والهواجس الشيطانية التي تهيج بها الشهوة ويثور بها الغضب فهذه هي من أعداء العقل التي يجب محاربتها . والقضاء على أسبابها المتولدة منها فإن هذه الوساوس قد تتولد بسبب الحواس الظاهرة . أو الباطنة إذا أساء الانسان استعمالها مثال ذلك في الحواس الظاهرة أن يطلق العنان لبحره في النظر إلى ما لا يحل له أو في النظر إلى المباهاة التي يترتب عاها تمنيات فاسدة ومحاولات غير مجدية كما إذا تعدد النظر إلى امرأة حسناء لالتحلل له أو إلى غلام امرء جميل فإن ذلك من بواعث تهيج الشهوة وإثارة الوساوس النفسانية . والهواجس الشيطانية التي قد تحمل ضعيف النفس على طاعة شهوته وقضاء لباته فيسعى وراء تلك المرأة أو ذلك الغلام ان وجد لذلك سبيلا والانتقل إلى ما يمكنه الحصول عليه ليرضى شهوته الهائجة ولا يبالي بارتكاب الفاحشة وكذلك قد ينظر إلى ما يملكه غيره من القصور الجميلة والحدائق الفناء ونحو ذلك فتدخل إلى نفسه الوساوس الفاسدة وتزين له أنه كان أحق بملك هذا وأن مالكها غير أهل لها فيترتب على ذلك الحقد والحسد والغيرة وما إلى ذلك من الصفات الذميمة التي تضر بالمجتمع الانساني ضررا بليغا . وقل مثل ذلك في حاسة السمع فإن الانسان قد يسمع صوتا حسنا من غانية أو غلاما تهيج شهوته ويترتب عليها ما ذكرناه في المثال الاول ومثل ذلك إذا تعدد النظر إلى ما يثير غضبه وهكذا في سائر الحواس الظاهرة كلبس ما لا يحل أو شمه

ومثال ذلك في الحواس الباطنة أن الصور التي تدخل إلى النفس بسبب الحواس الظاهرة تبقى في الخيال ولو كلف عن الاحساس فتترتب عليها الوساوس التي ترتبت على نفس الاحساس وقد تهيج الشهوة

بعامل داخلي محض كما إذا أكل كثيرا أو كان في مزاجه قوة طبيعية تهيج بسببها الشهوة فإن كل ذلك تتولد منه الوسوس النفسية والهواجس الشيطانية فواجب العقل بازاء ذلك أن يزجر الحواس عن كل ما يترتب عليه ذلك فلا يسمح لبصره أن يتطلع إلى ما يثير شهوته ولا ينظر إلى ما يحرك غيرته أو يثير غضبه ولا يسمح لسمعه أن يسمع ما يهيج شهوته أو يثير غضبه ومثل ذلك في سائر الحواس. وإذا قد عرفت أن الحواس الظاهرة والباطنة قد تكون سببا في الوسوس الفاسدة والخواطر الضارة فاعلم أيضا أنها قد تكون على العكس من ذلك فإنها إذا استعملت في النظر إلى مصنوعات الله تعالى مثلا وإلى نظمها وفي سماع المواعظ والحكم ونحو ذلك فإنها تفضي إلى خواطر روحانية وهواجس ربانية يترتب عليها اليقين بالله تعالى والبعد عن المعاصي والخطايا وتأييد القلب في حكم الشهوة والغضب والسير بهما في الطريق القويم والصراط المستقيم فالقلب بين عاملين يتنازعانه. وسوس شيطانية. وخواطر ربانية ولكل منهما أسباب ظاهرة وأسباب خفية. فأما الأسباب الظاهرة فأنك قد عرفت ما واما الأسباب الخفية فهي الشيطان والملوك فاما الشيطان فإنه يعد بالشر ويأمر بالفحشاء ويخوف من هم بعمل الخير بالفقر وأما الملوك فإنه يكشف الحق ويعد بالخير ويأمر بالمعروف كما قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فمن كان سعيدا في دنياه وآخرته فإنه يحارب وسوس الشيطان ووسائلها ويطرده عن نفسه ما يضعفها من عوامل الشهوات والفساد والله ولي المؤمنين

ما يؤخذ عليه الانسان من تلك الوسوس

وما لا يؤخذ

للانسان حالة قسرية لا اختيار له فيها وتلك الحالة لا يؤخذها الله عليها لأن الله تعالى لا يؤخذ العبد على ما ليس له فيه اختيار قال تعالى : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) اما الحالة الاختيارية فإنه يؤخذ عليها إذا وصلت إلى حد الجزم بالفعل ولذا ذكر لك مثلا يوضح ذلك المقام . إذا نظر المكلف إلى امرأة حسناء عفوا بدون قصد فهاجت شهوته فإنه لا يؤخذ على ذلك رأسا لأن النظر لم يكن باختياره وهيجان الشهوة أمر طبيعي لا اختيار له فيه أيضا فلا عقاب على شيء من ذلك فإذا أهاجت الشهوة وسوسه وتردد في أنه يتبع هذه المرأة أو لا يتبعها فإنه لا يؤخذ على هذا التردد أيضا . فإن جزم بذلك وهم بفعل الفاحشة ولكنه لم يفعل خوفا من الله تعالى كتبت له بذلك حسنة لأنه جاهد شهوته وقهرها بعد أن دفعته إلى أخرج المواقف أما إذا لم يفعل خوفا من أمر ديني أو لمانع آخر فإنه يعاقب على ما في نفسه وإلى ذلك يشير قوله تعالى (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار فقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لأنه أراد قتل صاحبه » وهذا نص في أن

ارادة قتل صاحبه جزما كاف في العقاب فالذى يؤخذ عليه المرء من حديث النفس هو الجزم بالفعل الاختيارى اما الخواطر التى تعرض وتزول ولا تترتب عليها آثار ففى كالأخطار الاضطرارية لا مؤاخذه على شئ منها

أقسام الشهوة

تنوع الشهوة الى أنواع شتى . شهوة الفرج . شهوة البطن . شهوة البنين . شهوة المال . شهوة الأنعام . شهوة الحرث والزرع . شهوة الجاه وبعد الصيت . شهوة الحكم واستبعاد الناس . وغير ذلك ولكن أشد الشهوات خطراً وأكثرها أثراً شهوة النساء . والأموال . والأولاد والى ذلك يشير قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) الآية فذلك هى الأمور التى يجرى الناس خلفها متزاحمين ويسعون وراءها مسارعين . ففهم من يعرف القدر اللازم له فى حياته ويعرف الطريق السوى التى ينفذ منه اليها فلا يتعثّر فى مشيته ولا يضل طريقه المستقيم وذلك هو الذى يغلب عقله على شهوته فلا يسمح لها بالطغيان ولا يرضى لها بالعصيان فيعيش سعيداً فى دنياه ويكون فى آخرته من الفائزين . ومنهم من يطلق لها العنان فلا يعرف لها حداً ولا يقف معها عند نهاية وذلك هو الذى تغلب شهوته عقله فيتخبط فى طريق الوصول اليها ولا يبالي أن يتعدى حدود الله التى حدها لها بل يصرف كل همه الى السعى وراءها من أى طريق والدخول اليها من أى باب ولو كان فى ذلك هلاكه وشقاؤه فى دنياه وآخرته وذلك هو الخسران المبين

شهوة الفرج

ركب الله تعالى فى الانسان شهوة الفرج تركيباً قوياً وجعل لها عليه سلطة شديدة فاذا هاجت كانت أشد الشهوات عصياناً على العقل فلا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً فاذا لم يكن قوى الارادة شجاعاً انقاد لها صاغراً وأطاعها ذليلاً . وانما جعل الله سبحانه تركيب هذه الشهوة على ذلك النحو من القوة والبأس لما يقتضيه نظام الناس ويتطلبه بقاء العمران فى هذه الحياة الدنيا فلولا قوة هذه الشهوة وشدة سلطانها على الانسان لأبى أن يحتمل ما يترتب عليها من مشاق البيوتة وتكاليف الزوجية وتربية الأولاد والكد من أجلهم والرضى بالآلام التى تتأبها اذا مرضوا أو أصيبوا بمكروه الى غير ذلك من

متاعب الترية وأنقاها . خلق الشهوة على هذا النحو من القوة من أوضح الدلائل على قدرة الخالق وكمال علمه وجليل حكمته فان الانسان مسوق الى التناسل رغم انه مقهور على احتمال كل ما يترتب عليه من العناء وهو مع هذا راض كل الرضى . وكذا المرأة فانها ما كانت تستطيع حمل عبء الولادة والحمل ومشاق تربية الاولاد وهم صغار والسهر بهم الليالي والقيام على حراستهم ودفع الاضرار المكروهة عنهم وهم اطفال صغار واحتمال ما يعتريها من الآلام وعدم الراحة لولا هذه الشهوة القوية وأيضا فان الله قد خلق النساء على حالة من الضعف لا يقدرن معها على احتمال تكاليف الحياة ومشاق الجهاد في معتركها فسخر الله لهن الرجال يحملن عنهن كل ما يعجزن عن احتماله في سبيل حياتهن بدافع هذه الشهوة القوية ولولاها لما كان للنساء هذا السلطان على النفوس

الاسباب المثيرة لشهوة الفرج

وإذ قد علمت أن شهوة الفرج لها من القوة والتأثير هذه المنزلة وأنها إنما خلقت كذلك لحكمة يقتضيها نظام العمران وبقاء التناسل إلى الأمد الذي قدر له . فاعلم أن العقل مشغول عن تصريف هذه الشهوة والوقوف معها عند الحد الذي خلقت من أجله فلا يسمح لها بمجاوزة هذا الحد ولا يذرها تهيج بالوسائل المختلفة بل يجب عليه أن يبعد عن كل المناظر التي تحركها والاسباب التي تبعثها من مكنتها وأن يتبع معها سبيل الاعتدال فلا يفرط فيها ولا يفرط لأن الافراط في شهوة الفرج تشبه بالبهائم والتفريط فيها تشبه بالجناد والاعتدال هو خير الأمور الثلاثة بالانسان أما الاسباب التي تثير هذه الشهوة وتهيجها فهي أمور . النظر . والخلو . وحديث النفس . والغذاء الدسم الكثير . واستعمال بعض العقاقير والمخدرات وغيرها

النظر

فاما النظر إلى من لا يحل سواء أكان أمرد جميلا أم امرأة حسناء فانه مثير للشهوة وموجب للوساوس النفسانية والخواطر الشيطانية المضعفة لقوة العقل فيتقهقر أمام هذه الشهوة ويفعل كل ما يطلبه منه ولو كان فيه هلكته وفناؤه لهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر إلى من لا يحل النظر اليه وقد ورد في هذا أحاديث كثيرة . منها ما رواه الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم » ومنها ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني » إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة النهي عن النظر إلى من لا يحل النظر اليه . وليس النظر إلى الجمال في ذاته منها علة لأن الجمال دليل على عظم الصانع وبديع قدرته وانما المحرم النظر المفضي إلى تهيج الشهوة وطفئانها والتفكير في الاسباب والدواعي التي تسوقه إلى إتيان الفاحشة والقضاء على العفة ومكارم الاخلاق ولذلك لم

بانه عن أول نظرة تصادفه بدون اختياره فاذا وقع بصره على امرأة جميلة عفواً بدون قصد فانه لا يؤخذ على هذا ولو هاجت شهوته وإنما المحرم أن يتبعها بأخرى فيثير شهوته باختياره وينزل تحت حكمها ولا يبالي بحكم العقل والدين. ولذا روى عن جرير رضى الله عنه أنه قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال اصرف بصرك» رواه مسلم وأبو داود والترمذي فلم يرتب رسول الله ﷺ شيئاً على النظرة الاولى وإنما أمره بصرف بصره فلا يتبع الاولى بغيرها لأنه في هذه الحالة يكون قد خضع لسلطان الشهوة وتعمد إثارتها ورضى أن يتبعها فيما تتطلبه منه وفي هذا من الخطر ما قد علمته . وكما أن النظر المفضى الى اثارة الشهوة حرام على الرجال فهو حرام على النساء أيضاً فلا يحل لمن أن ينظر الى رجل بشهوة ولو كان أعمى أما النظر بدون شهوة فانه لا حرج فيه فلو نظر الى غلام أمرد جميل أو الى وجه امرأة نظراً خالياً من الشهوة واللذة فانه ليس بحرام حتى ولو أدرك معنى الجمال فان هناك فرقاً بين الانفعال الحاصل للنفس عند ثوران الشهوة وبين تكيفها بمعنى الجمال . مثلاً اذا نظر الى شجر نضر ، أو نبات منسق بالأزهار المختلفة . أو نظر الى ثريات الانوار المنتظمة فانه بلا ريب يدرك معنى جمالاً تتكيف به نفسه ولكن لا يبعث هذا الادراك الى المعنى الذى تتطلبه الشهوة من تقييل الأزهار أو عناقها مثلاً فالنهي على الحقيقة إنما هو عن اثارة الشهوة والاندفاع معها الى ما لا يحل . على أن الاولى للانسان البعد عن النظر الى ما عساه أن يهيج الشهوة على أى حال فانه قد يقع في شرك الشهوة من حيث لا يدري وقد يترتب على النظر بلاء وفتنة للمرء لا يستطيع الافلات منها كما اذا أوقعه النظر الى الجمال في العشق والغرام ولم يكن له قدرة على الوصول الى معشوقه فانه في هذه الحالة لم يستفد سوى تعذيب القلب وشغل النفس بما لا يجديه نفعا وقد يوقعه ذلك في أشد الأخطار وأصعب المحن كما وقع لكثير من العشاق الذين هلكوا بسبب الهجران أو أضاعوا دينهم وكرامتهم مرضاة لمعشوقهم وذلك هو البلاء المبين ويعبئني في هذا المعنى قول بعضهم .

وكنت اذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتبعك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فينبغى للمرء أن لا يجعل بصره رائداً لقلبه فيقوده الى ما لا يستطيعه وفي هذا خطر جسيم . وبلاء عظيم

الخلوة

واذا كان النظر الى من لا يحل النظر اليه بقصد التلذذ به محرماً فالخلوة بمن لا تحل محرمه من باب أولى لان الوسواس الشيطانية تجد لها مجالاً في هذه الحالة وثوران الشهوة يجد له مبرراً فيضعف العقل عند هذا ولم يكن له تأثير على زجر الشهوة قسوة الى ارتكاب الفاحشة كما يسوق الرجل دابته المطيعة لهذا نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » رواه البخارى ومسلم

وعن عتبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « قال إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحم قال الحم الموت » وقد فسر بعضهم الحم بأنه أبو الزوج وأخوه وعمه وابن عمه ونحوهم وقيل المراد أقارب الزوج أو أقارب الزوجة ومعنى قول رسول الله ﷺ الحم الموت أنه يموت ولا يفعل ذلك . وإذا كان فيه رواية عن نبي أبي الزوج عن الخلوة بامرأة ابنه مع كونه محرماً فما ظنك بالقريب الذي ليس بمحرم لاشك أن في ذلك منتهى الزجر عن الخلوة بالمرأة التي تشهى ولو كان لا يحل له تزوجها كأخت امرأته . وعمتها . وخالتها . وامرأة ابنه . بل وأم امرأته خصوصاً عند فساد الزمان فإن كثيراً من الناس أصبحوا عبيداً لشهواتهم وأصبحت أنفسهم ضعيفة لا تقوى على التفكير في نتائج الفاحشة وفنائتها فخير للمرء أن يتجنب الوسائل التي تهيجها وتسلطها عليه

حديث النفس ووساوسها

وأما حديث النفس ووساوسها فقد تقدم الكلام فيه وقد علمت أنه إنما يترتب على الحواس الظاهرة . أو الباطنة كالنظر . واللبس . وغير ذلك إذا أسى . استعمالها فارجع إليه إن شئت

الغذاء الدسم أو شهوة البطن

إن شهوة البطن من شر الآفات التي تجعل المرء عرضة للأخطار ومهدفاً للأمراض البدنية والعقلية فهي سبب في كثير من الأمراض التي تنتاب البدن وربما أفضت به إلى الهلاك كما أنها سبب في بلادة العقل وضعف سلطانه على البدن . لذلك ورد في السنة كثير من الأحاديث التي تنهى عن الشبع وملء البطن منها ما روى عن المقداد بن معديكرب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ماملأ آدمى وعاء شراً من البطن بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » رواه الترمذى وحسنه ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه وفي هذا الحديث إشارة صريحة إلى أن الغذاء الذي يحتاج إليه الإنسان في قوام حياته يسير لا يملأ ثلث المعدة وأن الاقتصار عليه نافع للإنسان فإن أبي إلا أن يأكل كثيراً فيجب أن لا يزيد على ثلث المعدة لترك الثلثين الباقيين للشراب والنفس وليس معنى كونه يترك الثلث للنفس أن يتنفس من المعدة كما قد يظنه بعض العامة بل المراد أن ملء المعدة ينشأ منه مضايقة الرئتين والقلب فيضر النفس ضرراً واضحاً

وهذا من أجل الحكم وأعظمها قدراً فإن التجارب دلت دلالة قاطعة على أن معظم الأمراض التي تنتاب الإنسان مصدرها المعدة وكثرة الطعام فكلما أمعن الناس في التثني والتفنن في أنواع الطعام كلما كثرت امراضهم وتفتت بينهم الادواء . وكثير منهم يذهب ضحية الشره وملء البطن فلو قشست القبور لوجدتها مملوءة بضحايا كل اللحوم الكثيرة والادهان والحلوى ونحوها وقد أجمع علماء الابدان

(الاطباء) على أن الغذاء الزائد على حاجة الانسان شديد الضرر وأن خير علاج للأمراض الكف عن الشره وإعطاء المعدة القدر الذى تحتاج اليه من الغذاء

فاذا لم يكن فى الشره والاكل الكثير سوى ذلك الضرر المادى المحسوس لكان كافياً فى زجر النفس والوقوف بها عند الحد المطلوب منه فما بالك إذا كانت فيه غوائل أخرى تضر بالاخلاق وتؤثر فى الدين وتقضى على سلطان العقل . ومن أهم تلك العوامل أنه مشير لشهوة الفرج التى سبق الكلام فيها بل الشبع أشد تأثيراً فى تهيجها من النظر لان النظر أمر خارجى يستطيع العاقل أن ينصرف عنه بدون عناء . أما الشبع فهو أمر داخلى موجود مع المرء مادام شعبان . فاما المتزوج فقد تحمله شهوته على الافراط مع أهله فيضر بصحته ضرراً بليغاً وربما دفعه هيجان الشهوة والخضوع لمطالبها إلى ارتكاب الفاحشة مع غير زوجته شرها ولثوماً . وأما الاعزب فان هيجان شهوة الفرج عنده من أخطر الامور عليه وأشدّها ضرراً به فان سلطان العقل فى هذه الحالة يضعف وأمره ونبيه يذهبان سدى فإذا اعتدل الانسان فى غذائه واقتصر على القدر الذى يحتاج اليه بدنه ويكفى لمعدته اعتدلت شهوته واستطاع أن يوقفها عند الحد المطلوب منها

ومن مضار الاكل الكثير ثقل الجسم المفضى إلى الكسل وترك العمل المطلوب للدين والدنيا فان الاكل يزيد وزن جسمه فيثقل ويذهب نشاطه وخفته ويكثر نومه فلا يؤدى واجبه على الوجه المطلوب منه

روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت « أول بلاء حدث فى هذه الامة بعد نبينا الشبع فان القوم لما شبعوا بطونهم سمنت أبدانهم فضعت قلوبهم وجمحت شهواتهم » رواه البخارى فى كتاب الضعفاء . وقال رسول الله ﷺ « إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة » رواه البخارى ومسلم فالشره فى الطعام ضار بالابدان ضار بالعقول ضار بالدين لذلك نهى عنه الشريعة الاسلامية وحذرت الناس من شره وليس المراد النهى عن التمتع بنعم الله تعالى والطيبات من الرزق (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإنما المحرم هو القدر الضار بالابدان والعقول فالشريعة الاسلامية تنهى الناس عن استعمال وسائل الهلاك سواء كانت مادية أو معنوية وتحذر الناس تحذيراً شديداً من الافراط فى الشهوات على اختلاف انواعها وكذلك تنهى عن التفريط فيها فان الله سبحانه ما خلقها الا ليتنعم بها عباده ولكن الحذق والمهارة انما هو فى الوقوف معها عند الحد الذى خاقت من أجله ولا ريب فى أن القدر المباح من الشهوات الذى لا يترتب عليه ضرر للجسم والعقل كاف فى التمتع بل هو عين النعيم وما زاد عليه شقاء وبلاء فان الانسان إذا أكل من كل شئ مباح يشتهي قدراً يسيراً لا يضايق المعدة فانه يتلذذ لذة لا يعقبها ألم . ولا ينشأ منها ضرر وذلك هو معنى النعيم الصحيح أما اذا أفرط فى غذائه وأكثرت تناول الانواع المختلفة فقد كلف معدته حملاً ثقيلاً لا يستطيع النهوض به وكلف باقى أعضاء البدن مالا طاقة لها به وتلك لذة من شر اللذات لان عاقبتها بلاء وسقم فواجب على العاقل أن يمنعها ويكف عنها . وكذلك الحال فى شهوة الفرج وسائر اللذات

ومن هنا قال رسول الله ﷺ « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب ويتشققون في الكلام فأولئك شرار أمتي » رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط . وبديهي أن ذلك الحديث يتضمن نهيًا شديدًا عن الشره في الطعام والاسراف في الشهوات . وإنما النهي عن ذلك القدر الذي قرناه لك وهو الافراط في الشهوات والخروج بها عن حدها الذي خلقها الله من أجله وهو ضار بالإنسان ضررًا بليغًا خصوصًا إذا أضفت به الرفاهية التي ترك الواجبات الدينية والدينية وأصبح لا يعبئ من حياته إلا التفتن في أنواع الطعام والشراب والتفتن في الزينة واللباس والتشقق في الكلام الذي لا يفيد فانه في هذه الحالة يخرج عن معنى الإنسان ويكون أقرب شبهًا بالحيوان

استعمال العقاقير المهيجة لشهوة الفرج

من الناس من تستولي عليه تلك الشهوة وتملكه من جميع نواحيه فيصبح كالعبد المخلص لمولاه في غيبته وحضوره لا يفكر إلا في طاعته ولا يعمل إلا فيما يرضيه فترى كثيرًا من هؤلاء تسكن فيهم تلك الشهوة بسبب طبيعى فيسعون في انارتها وتهيجها باستعمال العقاقير وتعاطى المخدرات وذلك منتهى الحماقة والجنون فانك اذا سمعت ان انسانا نام عنه عدوه وانصرف عنه فاذا به يسعى لا يقاظه وإثارته عليه فانك لا تتردد في الحكم عليه بانه مجنون لا ينضبط له عمل ولا يقام له وزن . كذلك شأن من تسكن شهوته بطبيعتها فيهيجه بالعقاقير والمخدرات فاذا ما اجت اصابه من شرها في دينه وديناه ما كان في مأمن منه وفي غنى عنه وعجيب أن مثل هؤلاء لا يفكر الواحد منهم فيما يعود عليه من الاضرار التي تنشأ من استعمال العقاقير والمخدرات فوق الاضرار التي ترتب على شهوة الفرج فان تلك العقاقير ينشأ منها للبدن أضرار قد تقضى به الى الهلاك فضلا عما يترتب عليها من التأثير على العقل ومخالفة الدين فشهوة الفرج اذا طغت وخرجت عن الحد الذي خلقت له تجر وارءها من البلاء والأذى ما لا يقف عند حد . فيجب على المرء ان يجعل للعقل سلطانا كاملا على تلك الشهوة فلا يصرفها الا حيث يأمن غائلتها في دينه وبدنه وماله فليس من الحكمة ان تسوق تلك الشهوة الى تعاطى الحشيش والمخدرات والسموم التي يظن انها مثيرة لها فيقضى بذلك على عقله وبدنه وماله ودينه وكرامته وعند ذلك يندم حيث لا ينفعه الندم ولا تغنى عنه تلك الشهوة شيئا

الزنا واللواط

وشر مضار شهوة الفرج على النوع الانساني الزنا واللواط ولهذا قد ورد النهي عنها في كتاب الله تعالى وسماها سبحانه فاحشة قال تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) وقال تعالى في توبيخ آل لوط (ان اتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) الآية وقد حرم الفواحش صريحا بقوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ولقد وردت في النهي عن الزنا

والمواط أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وكفى بذلك زاجراً للزاني لأنه في حالة زناه ينزع الله منه الإيمان كما ورد في حديث آخر رواه ابو داود عن ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « اذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة فاذا اقلع رجع اليه الإيمان » فالزاني الذي لا يتوب من جريمته ولا يندم على فعلته لا يعود اليه إيمانه ولا يحسب في عداد المؤمنين الذين يرجون رحمة الله تعالى ورضوانه . وكذلك اللواط فقد ورد في النهي عنه احاديث كثيرة منها ما رواه الطبراني في الاوسط عن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال « لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سمواته وردد اللعنة على كل واحد منهم ثلاثاً . ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه . قال ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من عمل عمل قوم لوط . ملعون من أتى شيئاً من البهائم . ملعون من عقى والديه . ملعون من جمع بين امرأ أو ابنتها ملعون من غير حدود الارض . ملعون من ادعى الى غير مواليه » الى غير ذلك من الاحاديث المتضمنة زجراً شديداً عن هاتين الجريمتين . وما كان الله تعالى ورسوله ليحرم على الناس لذة من اللذات الا لما يترتب عليها من المضار والمفاسد التي تلحق النوع الانساني فتؤذي ماديها أو أدبها . ولا ريب في أن مضار الزنا المسادية والأدبية لا تخفى على أحد من العقلاء . ولكن سلطان تلك الشهوة الفاسية يلهمي الزناة عن تلك المضار وينسبهم عظمة الله الواحد القهار الذي نهاهم عن اقتراف تلك الجريمة وأوعدها فعلاها شر العقاب وسوء المصير . ولو قام العقل بأداء واجبه واستعرض المضار التي تترتب على الزنا وزجر تلك الشهوة البهيمية وحذرهما عاقبة الزنا وشره في الدنيا وعذاب الله في الآخرة لوقفت عند الحد الذي خلقت من أجله وأمن الانسان شرهما . فمن مضار الزنا وآثره السيئة في المجتمع الانساني ضياع النسل والجناية عليه فالزاني والزانية لو أدركا ما قد يترتب على زنيتهما التي تقضي على الفور من الآثام لكان عليهما أن يفنيا من هذا الوجود ولا يرتكبا تلك الجريمة فقد يترتب على عملهما وجود ولد قد تتخذه تلك العاهرة في مهده . وقد تسقطه جنينا . وقد تلده إنسانا كاملاً ثم تنبذه بالعراء معرضاً لمحن الحياة ومصائب الايام . لا يعرف له أمأ تحنو عليه . ولا أباً يرحم طفولته ويحفل بتربيته وقد تقذف به الاقدار في حضانة من يريه على غير دين أبويه أو على أخلاق فاسدة فينشأ عضواً ضاراً بالمجتمع الانساني وذلك بلاء عظيم وضرر مبین . فاذا كانت الزانية متزوجة كانت خيانتها أشد وجنابتها أعظم فانها تدخل عنصراً غريباً بين أبنائها تغش به زوجها وقد يكون في آخر أمره نكبة على الأسرة بتمامها فانه قد ينزع إلى أيه الحقيق ويتبعه في أخلاقه وقساده

قد يقول بعض الفساق إنه يمكن اتقاء خطر هذا باستعمال الوسائل التي تمنع الحمل والولادة وتلك لعمر الله أشد ضرراً على المجتمع الانساني وأكبر جناية على العمران فان هذه البدعة إذا فشت في أمة انقرضت جميعها في وقت قريب لانها تكون قد قضت يدها على ذريتها ونسلها وحكمت على نفسها بأن تكون أقل إدراكاً من الحيوانات التي تناسل وتتوالد لبقاء العمران الى الابد الذي اراده الله . وأي جناية أكبر من أن يصبح الانسان لاهم له في هذه الحياة الا قضاء شهوة بهيمية

لا يعرف لها غاية . ولا يدرك لها ثمرة مع انها لم تخلق الا للتاسل وبقاء النوع الانساني . فاذا وجد بين الناس ذنب من الذناب او بهيمة من البهيم لا يقدر ذلك ولا يحفل به فاذا يصنع في الاعتداء على اعراض الناس وافساد اخلاق نسائهم وبناتهم وأهليهم بل افساد اخلاق نسائه وبناته واهله في آخر الامر وای وسيلة يتق بها ذلك الخطر الا يظن أن الجناية على الاعراض اشد ضررا واسوأ اثرا من الجنايات على الاموال فان الرجل يسهل على نفسه ان يضحى ماله في سبيل المحافظة على عفاف زوجته او بنته او اخته او اهله بل كثير من الناس يهون عليه الموت والفناء في سبيل ذلك . فليتصور الزاني والزانية قبل الاقدام على تلك الفعلة الشنعاء أن أمرهما قد انكشف وأن الزوج أو الأخ أو الأب داهمهما وهما على تلك الحالة فاذا يكون موقفها حينئذ . هل تبقى ثورة الشهوة وسلطانها فلا يحفلان بمن داهمهما او تخور عرائسهما وتنخلع قلوبهما وتكاد ارواحهما تزهرق ولا يبقى للشهوة في تلك اللحظة اثر كأنها لم تخلق فيهما من قبل ثم ليتصورا ماذا يكون حال ذلك الزوج المسكين او الاب او الاخ او القريب الذي يتعير بتلك الفاجرة افلا يهون عليه في هذه الحالة ان يضحى بكل ماله ولو خير بين ضياع المال وهذه الحالة لا اختار ضياع المال بلا نزاع وكثير من الناس يطيش له من هول ذلك المنظر فيقتلهم ثم يقتل نفسه وهو لا يدري . وليس ذلك من باب الفرض والتقدير وانما هو أمر كثير الوقوع بين الناس وقد تكرر غير مرة . وهذا يدل دلالة محسوسة على فظاعة تلك الجريمة وصعوبة اثرها على نفوس من لهم علاقة بالزانية فما بال الزناة لا يقدرون ذلك حق قدره ويعلمون أنهم ان نجحوا في الدنيا من الفضيحة فانهم سيفتضحون في الآخرة وأنهم سيؤدبون ثم ذلك لأصحاب الحقوق غالبا يوم يسأل الظالمون عن اعمالهم ولا يجدون لهم ولها ولا نصير افساقون الى جهنم وبئس المصير . ألا يعلمون أنهم ان ستروا أنفسهم عن اعين ولاية امر الزانية فان الله مطلع عليهم وانه خير بأعمالهم وانه لن يترك مثقال ذرة من حقوق العباد بل يأخذها من حسنات هؤلاء المجرمين ان كانت لهم حسنات او يحملهم سيئات ارباب الحقوق ان لم تكن لهم حسنات ثم يساقون الى العذاب الاليم . فاذا وجد فريق من الناس قست قلوبهم وعمت بصائرهم واصبحوا لا يبالون بحقوق الناس ولا يستحيون من الله تعالى ولا يحسبون حساب يوم كان شره مستطيرا افلا ينبغي لهم ان يحسبوا حساب نسائهم وذريتهم فان الزاني لا بد ان يهجر زوجته ان كان متزوجا فيحملها ذلك على البغاء مثله ويكون هو وزوجه مثالا سيئا لذريتهما وفي ذلك من فساد الاخلاق ما فيه وقد ورد ما يشير الى ذلك في السنة المطهرة فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا نساءكم» رواه الطبراني باسناد حسن . ومعنى هذا أن العفة تجعل الرجل قاصرا على زوجته فتستغنى به عن غيره ومتى كانت المرأة ذات عفاف والرجل صالحا ذاعفة . نشأ من بينهما أبناء صالحون وذرية تقتضى أنهما وتقتدى بهما وذلك هو الأدب ومكارم الاخلاق التي يدعو اليها دين الاسلام ويأمر بها الناس في كل حركة وسكون . فاذا وجد فريق من الناس لا يبالى بنسل ولا يحفل بعرض ولا يعنيه أن يفسد نساءه وذريته كما لا يضره فساد نساء الناس وذرائعهم فذلك مالا يصح اقتناعه لأنه يكون قد انحط عن درجة حمار الوحش والقردة وغيرهما من بعض الحيوانات التي تغار على اثائها فاذا فشت هذه الروح في أمة من الأمم — وهي روح الاباحة

والفوضى — فانها تزول سريعاً . وتنقرض عاجلاً . ولا يبقى لها ظل في الوجود . وأظن أن ذلك كاف في زجر النفس عن الزنا فلا حاجة إلى تذكير الناس بما ينشأ من الأمراض التي تترتب على اختلاط الزناة ببعضهم ذلك الاختلاط الممقوت منها اتخذوا من أساليب الحيلة والحذر فإن ذلك الاختلاط لا بد أن يكون له أثره على أى حال ولا ما ينشأ عن الزنا من ضياع الأموال والجرأة على ارتكاب المحرمات فانك ترى كثيراً من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة فاجرة وأصبحوا لاقيمة لهم في الوجود وترى كثيراً منهم قد فسدت كل أخلاقهم وأصبحوا أعضاء أشلاء بسبب هيامهم بزانية وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى فمن أجل ذلك حرمة الشريعة الإسلامية تحريماً شديداً وقرنه الله تعالى بالشرك والموبقات الكبيرة في قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب)

أما اللواط فانه رذيلة من أسوأ الرذائل وخصلة من شر الخصال التي لا تليق بالإنسان فان الله قد خاق الإنسان من ذكر وأنثى وجعل الأنثى محلاً لقضاء تلك الشهوة ومكاناً لذلك العمل الخاص فهو مسوق بفطرته إلى ذلك المعنى ومخلوق بحسب نظام الكون على تلك الحالة . واللواط خروج غريب عن النظام الفطرى واعتداء صريح على ما تقتضيه طبيعة الإنسان لانه يقلب الذكر أنثى ويجعل الرجل كالمرأة في أخص أوصافها التي خلقت لها وذلك شر وويل وفساد كبير . ومن أجل ذلك يقول الله تعالى توبخا لآل لوط (أنأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) ويؤخذ من تلك الآية الكريمة أنهم أول من خرج عن طبيعة الإنسان في ذلك فدفعتهم شهواتهم الفاسدة إلى تغيير خاق الله وقلب نظام الطبيعة فسفوا تلك العادة الشائنة وجعلوا الرجال محلاً للشهوة التي اختصت بالنساء وبجيب أن نرى عدوى تلك العادة تنتقل من هؤلاء الأشرار — الذين خسف الله بهم — إلى غيرهم من النوع الإنساني مع أنها لم تسجد توجد في الحيوانات الأخرى . فانك لا تسجد تجد حيواناً من الذكور يأتي ذكراً مثله في دبره اللهم إلا قليلاً نادراً كيعض الحر الأهلية على أن من الحيوانات من يشعر بعار تلك الخصلة ويحس بما يحق بالمفعول به من الذلة والهوان . كالجل فانه إذا أريد إذلاله يؤتى له بحمل آخر يركب فوقه ويحاول إثباته ومتى فعل معه ذلك يصبح مكروباً ذليلاً . وإلى ذلك تشير الآية الكريمة فانه تعالى يقول لهم إن تلك الفاحشة لم يسبقكم بها أحد من العالمين والعالم كل ما سوى الله فيشمل الإنسان والحيوان

وإذا كان الإنسان تسوقه شهوته إلى أن يفعل ما ناباه نفوس الحيوانات العجاء فإذا يكون حاله . أليس من أكبر المصائب أن تحط درجة الإنسان في شهوة الفرج عن درجة الحيوان . اللهم إن في ذلك من الخزي والعار مالا نطقه النفوس الكريمة . ولا تحتمله الطباع السليمة فإذا لم يكن في رذيلة اللواط سوى ذلك لكفى بها ذماً بصرف عنها الناس ويزهدهم فيها ولكنها فوق ذلك يترتب عليها من المضار والمفاسد ما يؤذى المجتمع الإنساني وينافي طبيعة العمران . واليك البيان . أولاً إذا فسدت تلك العادة في أمة من الأمم وأصبحت داء خلقياً فيها لا تلبث أن تتعرض للقضاء بانقراض

نسلها ولو بعد حين لأن الرجال فيها تنصرف لاحتالة عن النساء فيقل النسل تدريجاً وتقرض الأمة في وقت ما . ثانياً أن اللواط يستغنى بالله كره المرأة فإن كان متزوجاً يمل زوجه فيعرضها للخنا والفساد . وإن كان أعزب لا يفكر في الحصول على زواج أبداً وإذا عمت اللواط أمة استغنت رجالها عن نساها وأصبحت النساء ضائعات لا يجدن موثلاً . ولا يظفرن بمعين يرحم ضعفهن وفي ذلك من الخطر الاجتماعي والعمراني ما فيه .

لعل بعضهم يقول إن النساء كالرجال يمكن استعمالهن كذلك فالحاجة اليهن مستمرة . ولكن المعروف عن اللواط أن داء يبعث إلى الذكور خاصة . فداء اللواط مآله الانصراف عن النساء على أي حال . ومع ذلك فإن إتيان النساء في غير محل الولد عادة مردولة يترتب عليها ضياع النسل كما قد مناه لك آتفاً . ثالثاً إن اللواط لا يبالي أن يستهوى الأحداث الذين لا يدركون العار ولا يعرفون الفضيحة فيمرنهم على فساد الاخلاق ويولد عندهم ذلك الداء فاذا ما بلغوا حد الرجولة وجدوا أنفسهم منغمسين في الرذيلة فيضيع الحياء من وجوههم ولا يباليون بارتكاب الجرائم الاخلاقية ولا يتعففون عن المحرمات الدينية ويكون وزر ذلك في عنق هذا اللواط الذي عمل على إفساد أخلاقهم وكان سبباً في نزع ماء الحياء من وجوههم وذلك عظيم عند الله تعالى ومن يفعله يضاعف له العذاب يوم القيامة لأن عليه وزرين ووزر ذلك العمل الشائن ووزر إفساد الغلام الذي لم يكلف فسحاً لتلك الشهوة الفاسدة التي تخلف وراءها ذلك البلاء المبين والعار المبين

رابعاً أن داء اللواط قد يوقعه في الغرام بغلام لا يستطيع الوصول الى اتيانه فيكون ذلك سبباً في تهتكه وضياع شرفه ودينه وعرضه ومروءته وقد يفضى به ذلك الى ارتكاب الجرائم الاخلاقية جميعها بدون مبالاة فيموت قلبه ويضيع حياؤه ويصبح عضواً فاسداً لا يخشى فضيحة ولا يخاف عاراً وقد يكون ذلك سبباً في هلاكه في الدنيا وله في الآخرة سوء العذاب

ذلك بعض مضار اللواط وهي كما ترى لها من الأثر السيء في أخلاق الناس ما يؤذى المجتمع الانساني ويضر بطبيعة العمران . ومن أجل ذلك قال الله تعالى لآل لوط (بل أنتم قوم مسرفون) وقال لهم في موضع آخر (بل أنتم قوم تجهلون) فانهم حقاً يجهلون نظم الطبيعة ونواميس العمران ويجهلون فوق ذلك ما يترتب على ذلك العمل من المضار التي تؤذى المجتمع الانساني كما علمت آتفاً ولقد غضب الله على آل لوط غضباً شديداً فلم يؤخر عذابهم الى يوم القيامة بل عذبهم في الدنيا فطبق عليهم مدائنهم التي كانوا يسكنونها وجعل عاليها سافلها ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . فرحم الله امرأة أثرت في نفسه العظمت وزجرته الزواجر فلم يجعل للشهوات الفاسدة القاتلة عليه سلطاناً . وقاتل الله من اتبع غيه وهواه وانقاد لتلك الشهوة الذميمة حتى صار كالأنعام بل هو أضل سبيلاً

شهوة المال

تفاوت أغراض الناس في طلب المال

تختلف طباع الناس وأغراضهم في طلب المال اختلافا عظيما كاختلافهم في كل ما يرون فيه السعادة والنعيم فمنهم من يقدس المال في ذاته ويعتبره مقصدا من المقاصد التي يجدى في الحصول عليه اكبر لذة ويرى في المحافظة عليه أكبر نعمة وإن لم يصل به الى أى غرض من أغراض الحياة ماديا كانت أو أدبيا بل همه منحصر في كثره وادخاره وهؤلاء هم البخلاء الذين يحرصون على القليل منه كما يحرصون على الكثير ويبخلون على أنفسهم وأهليهم بما قد يكون ضروريا للحياة ولا ريب في أن طبائع هذه الفئة قد انعكست وأحوالهم قد تبدلت فهم يعيشون عيشة الفقراء ويحاسبون حساب الاغنياء ولقد ورد في ذم هؤلاء كثير من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما سيأتى بيانه في مبحث البخل

ومن الناس من يطلب المال لينفقه في سبيل شهواته سواء أكانت حلالا أم حراما ضارة أم نافعة وهؤلاء هم المبدرون الذين يجعلون المال وسيلة للشهوات الفاسدة واللذات القاتلة وهم أشد ضررا على أنفسهم وعلى المجتمع الانساني من فريق البخلاء لأنهم سرعان ما يقضون على مالهم ويعيشون عالة على أمتهم فضلا عما تجره شهواتهم ورادها من الشرور والمفاسد

ومن الناس من يحصل المال ليكون ذا عظمة في أعين الناس ومكانة في أنفسهم كي يتصدرهم في مجالسهم ويرأسهم في محافلهم ويتقدمهم في الشؤون العامة والخاصة وسيطر عليهم في احوالهم ويكون له السلطان التام . وهؤلاء قسمان قسم يظن أن المال وحده كاف في ذلك فيحب العظمة من غير بذل والسيطرة من غير اتفاق وهذا الفريق ينعكس عليه الغرض فان حب العظمة مع الشح سبب في السخرية والاستهزاء ويعجبنى قول بعضهم

عثمان يعلم أن المدح ذو ثمن * لكنه يشتري مدحا بمجان

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وقسم يبذل المال ليكون عظيما ذا نفوذ وسلطان وهذا الفريق اذا هذب مقصده وحسنت نيته فإنه ينتفع بهذا الخلق انتفاعا عظيما فإنه اذا أنفق الفضل من ماله في أعمال البر والاحسان مرضاة الله تعالى فان الناس يعظمونه بطبيعتهم ويحلمونه بفطرتهم والانسان أسير الاحسان وقد قيل

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فليس في حاجة الى أن يشتري العظمة والجاه بالمال وإنما هو يشتري ما عند الله من الرضى والثواب وذلك وحده كاف في حصول غرضه الذي يريد « وإنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نواه »

أما من جعل المال وسيلة للعظمة والكبرياء واستعباد خلق الله واذلالهم فلا يزال أن يرشى الحاكم ليستبدله بمن يريد ولا يزال أن ينفق المال في اغراء الأشرار على ايداء من يحب ايداءه ولا يزال أن ينفق المال في التكيل بخصمه ظلما وعدوانا فذلك مفتون بما له فتنة شديدة نعوذ بالله من شرها لأن المال في هذه الحالة يكون شرا ويلا على صاحبه يفضى به لاهالة الى غضب الله وعقابه الشديد وذلك هو الحشران المبين

ومن الناس من يطلب المال ليستعين به على خيري الدنيا والآخرة فيربي به ابناءه تربية سالحة تنفع المجتمع الانساني ويصل به رحمه ويواسي منه الفقراء والمساكين وينفق منه على أعمال البر والاحسان ويحفظ به كرامته ويصون به عرضه ويستمتع منه بما أباحه الله له من الحلال الطيب من غير تبذير ولا تقتير ينفق منه ما فرضه الله عليه وهو قرير العين منشرح الصدر . فذلك هو الموفق الذي يكون المال له مطية للآخرة وسفينة للنجاة ينفعه في حياته وبعد مماته ويخلد له ذكرى سالحة في الدنيا وله عند ربه أحسن الجزاء

مدح المال وذمه

والكلام في السعادة

أما وقد علت تفاوت أغراض الناس في جمع المال وتباين مقاصدهم ونزعاتهم في الحصول عليه فانه يمكنك أن تمدحه وتذمه باعتبارين مختلفين فكلما كان الغرض شريفاً والرغبة صحيحة كان المال بمدوحاً وبالعكس . وكذا الحال في جميع أحكام الشريعة الاسلامية وقضاياها فانها إنما تنظر إلى جلب المصالح ودرء المفاسد كما تقدم .

فيمدح المال إذا كان طريقاً للخير ووسيلة للسعادة الحقيقية وهي النعم الدائم الذي لا ينفى والملك المقيم الذي لن يزول . وذلك هو نعيم الجنة في الحياة الآخرة . ومن أجل ذلك قال الله عز وجل (وأما الذين سعدوا ففى الجنة) الآية أما ما عدا ذلك من لذات الدنيا ونيعتها فإن الحصول عليه ليس سعادة حقيقية لانه مقترن بالنناء . والجهل . والعجز . والفقر . والسعادة إنما تتحقق بالبقاء الدائم . والعلم الكامل . والقدرة بلا عجز . والغنى الذى لا يراحمه الفقر . ولن يكون هذا إلا فى الدار الآخرة حيث يكون النعيم الدائم والملك المقيم

واقدر جعل الله سبحانه سعادة الآخرة مرتبطة بوسائل في هذه الحياة الدنيا لا تدرك إلا باتباعها ولا تنال إلا بالحصول عليها قال تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) الآية فإذا سميت وسائل السعادة سعادة كانت جذيرة بهذه التسمية

أما وسائل السعادة فهى أمور منها الفضائل النفسية . والأخلاق الدينية الكريمة التى حث الدين على التخلق بها . وأصول هذه الفضائل أربعة أشياء . الأول العقل وإنما يكمل العقل بالعلم . الثانى العفة وإنما تكمل بالورع . الثالث الشجاعة وإنما تكمل بالمجاهدة . الرابع العدل والانصاف

ومنها المال الحلال اذا أنفق في طريق حلال . ومنها الصحة . والعافية اذا استعملت في طاعة الله . فذلك أهم وسائل السعادة الآخروية وما عداها تابع لها ومتفرع عليها فيجب على العاقل أن يسعى لاستكمال فضائل نفسه فيتعلم العلم النافع الذي هو أكبر عون للعقل على سلوك الطريق القويم وأن يتخلق بخلق العفة كي يقف مع الشهوات عند الحد الذي خلقت من أجله فلا يذرهما تطفئ عليه . وأن يتورع عما في أيدي الناس من متاع الدنيا ولذاتها بما لا يحل له . وأن يكون شجاعاً يناضل عن الفضيلة . فيقول الحق . ويفعل الحق . ويدفع عن المجتمع الانساني كل ما يضره في دينه وماله . وعرضه . وأن يعدل في قوله وفعله فينصف الناس من نفسه ومن غيره وأن يعمل على ما يحفظ صحته ويصونها من الضعف فلا يفرط في الشهوات الضارة ببدنه ولا يعمل ما يؤذي به كي يقوى على أداء الحقوق الدينية وأن يسعى لتحصيل المال من طريق حلال كي يستعين به على أداء الواجبات الدينية والحقوق الانسانية من حج . وصدقة واطاعة لمهوف . واعانة باتس . وخدمة وطن . بإنشاء الأعمال الخيرية من مساجد . ومعاهد . وملاجئ . يأوي إليها اليتيم والمضطرب الى غير ذلك من أعمال البر والاحسان فان المال هو الذي يستطيع به مرشد السعادة أن ينفقه في كل هذه الأمور وقد يساعد المال على تحصيل الفضائل النفسية أيضاً فان صاحب المال يسهل عليه الحصول على العلم والعفة ووسائل الصحة أكثر من غيره فمن فعل ذلك وهو مؤمن فقد أطاع الله تعالى وسعى للآخرة سعيها فكان سعيداً موفقاً فمن هذه الجهة يكون المال ممدوحاً كل المدح لأنه في هذه الحالة يكون وسيلة هامة من وسائل السعادة التي يجب على كل مؤمن أن يسعى لها ويعمل للحصول عليها

من أجل ذلك سمي الله تعالى المال خيراً في مواضع من القرآن الكريم قال تعالى :
(ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) الآية والخير في اللغة ضد الشر وهو قسمان خير مطلق وهو ما كان مرغوباً فيه من جميع نواحيه كالفضائل النفسية وخير مقيد وهو ما كان مرغوباً فيه من جهة دون جهة كالمال الذي تتكلم فيه فانه قد يكون خيراً لشخص . وشرّاً ووبالاً على آخر كما علمت . لهذا قال رسول الله ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد والطبراني بسند صحيح وقال تعالى يمتنأ على بعض عباده (يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين) الآية الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مدح المال . أما ما ورد منها في ذمه أو ذم الدنيا فهو محمول على ما اذا أنفق في غير طريقه . أو جاء من طريق حرام وكذلك الأحاديث الواردة في ذم الدنيا فاذا سمعت حديثاً فيه ذمّ للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالات المذمومة التي تنشأ من المال واذا سمعت حديثاً فيه مدح للدنيا . أو للمال صرفته الى الحالة الممدوحة التي يساعد عليها المال . وذلك لأن الشريعة الاسلامية على صاحبها أفضل الصلاة . وأزكى التحية . كالطيب الخاذق الذي يصف لكل حالة علاجها ولا يتعلق له غرض بعقائير الدواب في ذاتها وانما كل همه منصرف الى محاربة المرض ونجاة المريض فكل ماتعنى به الشريعة الاسلامية انما هو تأديب النفوس وتطهيرها من أدران الشهوات وأقذارها والعمل في هذه الحياة على ما تقتضيه الحكمة وتتطلبه مكارم الأخلاق يدل على ذلك ما روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه في حقه أنابه الله عليه وأورده جنته ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه في غير حقه أحله الله دار الهوان ورب متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة يقول الله (كلما خبت زدناهم سعيراً) » رواه البيهقي وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقه بورك له فيها ورب متخوض فيما اشتبهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار » رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات

فهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن جمع المال من طريق حلال وأنفاقه في طريقه المشروعة ممدوح في نظر الشريعة الإسلامية يثاب عليه فاعله ويدخل به الجنة . أما جمعه من طريق حرام وأنفاقه في الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة على الوجه الذي يباه لك فإنه مذموم ولصاحبه النار يوم القيامة . وأشار رسول الله ﷺ بقوله خضرة حلوة إلى أن اللون الأخضر يلفت النظر لوضوحه . والحلاوة تجذب الانسان إليها . فالدنيا مرغوب فيها بطبيعتها تجذب إليها الناس قسراً ولكن الوصول إليها محوط بالأخطار . وفي الانسان عوامل الشهوات ودواعي اللذات تسوقه إليها سوقاً عنيفاً فالعاقل هو الذي يتقى مواطن الخطر ويحذر طرق الهلاك فلا يندفع أمام شهواته إلى تحصيل الدنيا من أى طريق لا يرضاه العقل ولا يقرها الدين بل يعمل بجد واجتهاد في الوسائل المشروعة التي يبتغيها الشريعة وبذلك يحصل على ما قدر له وهو آمن مطمئن ولذلك يشير عليه الصلاة والسلام في الحديث بقوله « من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه في حقه أنابه الله عليه وأورده جنته . ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه في غير حقه أحله الله دار الهوان » وهي جهنم وبئس المصير . وقد أشار الحديث إلى الاتفاق في غير حقه بقول . رب متخوض في مال الله ورسوله . أو رب متخوض فيما اشتبهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار . فذلك هو الذي جعل المال ذريعة إلى الخوض في الشهوات . والانغماس في اللذات واستعمله فيما يؤذى خلق الله واتخذته آلة للطغيان ووسيلة للعصيان فهذا لا ينفعه ماله الكثير الذي يخوض فيه خوفاً . ولا تنفعه لذاته الكثيرة التي ينعم بها بل تضره ضرراً شديداً وتهلكه هلاكاً ميباً لأنها فانية زائلة ومن ورائها عذاب النار .

من ذلك تعلم تأويل الأحاديث الواردة في الزهد في الدنيا بما يطابق أغراض الشريعة الإسلامية واسرارها . فإذا سمعت مارواه ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر من قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً » . فأنك تفهم منه أن المراد بالدنيا هي التي تشغله عن عمل له عليه أجر فيضيع ذلك الأجر منه ولا ينتفع بها في وجه من وجوه البر ولا يستعين بها على عمل الخير فيعوض مافاته من الأجر .

يرشد إلى ذلك معظم الأحاديث الدالة على الاجمال في طلب الرزق ونحوه فإنها ترمى كلها إلى شيء واحد وهو التحذير من الحرام . خذ مثلاً قول النبي ﷺ « يا أيها الناس أن الغنى ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس وإن الله عز وجل يؤتي عبده ما كتب له من الرزق فأجهلوا في الطلب

خذوا ما حل ودعوا ما حرم» رواه أبو يعلى فهذا نص في التحذير عن الحرام وأنه يجب على العاقل أن لا تدفعه شهوة المال والحرص على الغنى إلى كسبه من طريق حرام وكذلك سائر الأحاديث الواردة في ذلك الموضوع فإنه يحمل تطبيقها على ما بيناه لك لأنه هو الذى يطابق احكام الدين من جميع الوجوه وجملة القول فى ذلك ان كسب المال والمحافظة عليه ان كان من طريق ترضاء الشريعة الاسلامية وتحث عليه فهو ممدوح وصاحبه مأجور وان كان على العكس من ذلك بان يكسبه من طريق حرام وينفقه فى لذاته المحرمة وشهواته الفاسدة ويستعين به على الاضرار بالناس ويحمله على الظلم والطغيان والعظمة والكبرياء فهو مذموم. أما من لا ينفق فى هذا ولا ذاك فهو البخل ويقابله الكريم وهو عكس البخل ويتعلق بالبخل والكرم حالة أخرى وهى الاقتصاد أو الاسراف والتبذير مما يتعلق بالرغبة فى المال العفة والحرص والطمع وسنمقد لكل منها مبحثا خاصا نذكره فيما يلى

الاقتصاد

هو ادخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة اليه . ولقد علمت فيما مضى أن للمال جهتين . جهة مدح . وجهة ذم . فاما الأولى فهو ما اذا أنفق فى سبيل السعادة الآخروية التى سبق بيانها فى مبحث مدح المال . ومنها الاستعانة به على حفظ العرض . والنفس . والدين . والتعفف عن الشهوات المحرمة . والزهدة عما فى أيدى الناس . وكذلك الاستعانة به على أداء الواجبات الدينية من حج وزكاة . وصلة أرحام . وأنقاذ حياة انسان من الهلاك ونحو ذلك مما يوصل الى السعادة الخالدة والتعميم المقيم فانفاق المال على هذا الوجه لازم ضرورى لا يتصور فيه اقتصاد ومن يضن بانفاق ماله فى سبيل السعادة الخالدة فهو اما شحيح لا يعرف الغرض الصحيح من جمع المال والمحافظة عليه . واما مبدىر ينفق ماله على اللذات الفانية . والشهوات الفاسدة التى لا تنتيجة لها الا الافلاس والبؤس فى الدنيا والشقاء يوم الدين فهناك حالتان . ضن بالمال وشح . فلا ينفق على الواجبات الضرورية . ولا على اللذات والشهوات وتبذير واسراف بان ينفق فى سبيل اللذات والشهوات وهاتان الحالتان مذمومتان وانما الممدوح هو الوسط وهو انفاق المال فى سبيل السعادة التى ذكرناها ويتبعه الانفاق على الأهل والولد من غير تبذير . ولا تقتير . أما ما عدا ذلك من زخارف الحياة وزينتها . كالقصور والرياش الفاخرة والسيارات . والجياد المطهمة . وزيادة الخدم . والتفنن فى أنواع الطعام . والشراب . واللباس . وغير ذلك من أنواع اللذات فإنه مباح مادام منطبقاً على قواعد الدين لا يخرج عن حدوده لأنه حيثئذ يكون من طيبات الرزق والله تعالى يقول (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) انما تكون حراما إذا ترتب عليها حرام كأن ينفق فى سبيلها ما لا يحتمله ماله فيفرض به

ذلك إلى الافلاس في تجارته . أو زراعته . أو صناعته . أو غير ذلك لأن ذلك هو التبذير الحرام الذي نهى عنه الله ورسوله كما ستعلمه بعد هذا . وكذلك إذا استغرق الاتفاق على هذه الكاليات كل ربحه فيضر برأس ماله فلم يستطع القيام بالواجبات الدينية أو العمرانية ولم يتمكن من ادخار شيء ينفعه عند الحاجة إليه . أو ترتب عليها ضياع مال الناس كما إذا كان مدينا لغيره فانفق ماله في تلك الزخارف واللذات . أو ترتب عليها اغراق في الرفاهية ومبالغة في التمتع فقسا قلبه بذلك وانصرف عن طاعة ربه أو تكبر على خلق الله تعالى إلى غير ذلك من الآثار السيئة التي لا يقرها الدين ولا ترضيها شريعة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام

وبالجملة فأن زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها ونعيمها متى كانت حلالاً طيباً ولم يترتب عليها إسراف أو خروج عن دين الله تعالى فإنها مباحة في نظر الدين والا كانت حراماً ومن هذا البيان يمكنك أن تعرف معنى الاقتصاد ومعنى التبذير . والاسراف في نظر الدين فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « التبذير إففاق المال في غير حقه » ومعنى هذا أن المبذر يجهل بمقادير الحقوق التي تستوجب اتفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلمها ولكن تدفعه شهواته إلى مجاوزتها ومعنى التبذير والاسراف واحد في نظر الدين لأن مآلهما واحد وهو إففاق المال في غير موضعه وإن كان بينهما فرق في اللغة وهو أن الاسراف جهل بمواقع تلك الحقوق أي أنه ينفق ولا يعرف كيف ينفق بخلاف التبذير فإنه جهل بمقادير تلك الحقوق كما علمت فالأول جهل بالكم والثاني جهل بالكيفية . وروى عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد أن الاسراف هو الاتفاق في المعاصي والقتل هو الامساك عن الطاعات . وقال عون بن عبد الله الاسراف أن تنفق مال غيرك وكل ذلك يشمله كلامنا الذي أوغضناه لك آنفاً

أدلة الاقتصاد

ورد النهي عن الاسراف والتبذير والحث على الاقتصاد في كتاب الله وسنة رسوله فمن ذلك قوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) ومعنى قواماً وسطاً وعدلاً . وقال تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً)

فالآية الأولى حثت على الاقتصاد وهو الاتفاق الممدوح الذي يبناه لك . والآية الثانية نهت عن التبذير وهو الاتفاق المذموم الذي علمته وفيها إشارة إلى ما ينبغي الاتفاق عليه وهو أن يكون في سبيل البر والخير وقياماً بالواجبات التي فرضها الله تعالى على عباده كحقوق الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ولقد ذم الله المبذرين فجعلهم إخوان الشياطين وقرناهم في كفران أنعم الله تعالى التي

أنعمها عليهم فبدلاً من أن يشكروه سبحانه عليها ، بائس حال امره في شأنها فانهم وضعوها في غير موضعها فانقلبت عليهم تقها وكانت تيجتها العذاب مع الشياطين . ومن ذلك ما أخرجه الترمذى من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « السمات الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة » ومعنى الحديث أن هذه الخصال من شمائل أهل النبوة وجزء من أجزاء فضائلهم فينبغى الاقتداء بهم فيها . ولا ريب في أن هذه الأمور جدرة بأن تكون من أخلاق النبيين لما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق وأحسن الصفات فأما السمات الحسن وهو الهيئة الحسنة فإن صاحبه يكون محبباً عند الناس لا تنفر منه طباعهم ولا تستكره أنفسهم فيقربونه منهم ويستفيدون منه ويستفيد منهم . وأما المتشد في أموره المتأني في أقواله وأفعاله فإن كل ما يصدر عنه منها يكون مأمون العاقبة لا يترتب عليه ضرر لنفسه ولا لغيره فلا يسارع في إساءة الناس ولا يستعجل في إيصال المكروه إليهم ولا يعمل ما يعود عليه بضرر أدنى أو مادي فهو دائماً حافظ لسانه ويده فلا يقدم على أمر إلا إذا درسه من جميع نواحيه ولا يدخل في مأزق لا يستطيع الخروج منه ولا يستمسك عليه أحد بذلة ولا يؤأخذه بخطأ وذلك هو العاقل الذي يزن أموره بموازين الحكمة والصواب .

وأما المقصد فهو دائماً عزيز الجانب كريم النفس لا تدفعه الحاجة إلى أن يذل لغنى يستدين منه . أو يستجديه . ولا تضطره الشهوات إلى الملق والنفاق لمن يظن أنه يسد حاجته ولا يسوقه التوسع في المأكل والمشرب والمسكن وغيرها إلى الجبن والصغار . ولا تزين له عراجل الزينة والزخرف اقتراف الحرام أو جمع المال من أى طريق . ولا تذهب به الرغبة في سكنى القصور إلى قول الزور . ولا تحمله الرفاهية على مساعدة المبطلين والتكيل بالآبرياء والمظلومين . ولا يقضى عليه ذلك النعيم الزائل بإفناء ذاته وتضييع كرامته في سبيل الحصول عليه إلى غير ذلك من الصفات الذميمة التي تنشأ عن الاسراف والتبذير . ويحسمها الاقتصاد . من أجل ذلك كان الاقتصاد من أخلاق النبيين وحث الله عليه في كتابه الكريم

الشح

تعريفه

الشح هو الامساك حيث يجب البذل سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال والنفقة على الزوج والعيال ونحوهم ممن تجب عليه نفقتهم . وكذلك الاتفاق على احياء نفس يتوقف عليه احيائها ونحو ذلك . او كان واجبا مروءة بأن ينفق ما يناسب حاله فلا يليق أن يكون ذامال كثير ثم ييغل على نفسه بالطيبات

من الرزق. أو يضيق على أولاده وأهله فيحرمهم من نعم الله تعالى. أو يضيق على ضيفه. أو يسقط كرامته في عين البيئة التي يعيش فيها كأن يسفل في مسكنه أو ملبسه أو مركبه أو ينحط إلى مرتبة لا تليق به في المعاملة فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس إياه ونحو ذلك. فإذا حفظ الإنسان نفسه من هذا لا يكون بخيلاً في نظر الدين أما كونه كريماً في نظر الناس فذلك تابع لحالة الرجل المالية وتفاوت انظار الناس في تقدير الكرام فمن كان ذا مال كثير أو متوسط ثم أنفق منه ما يناسبه كان كريماً في نظر الناس أما من كان ذا مال كثير فاقصر في الانفاق منه على الواجب ديناً ومروءة فإنه لا يسمى كريماً عندهم خصوصاً إذا وجد بجواره من يبذل كثيراً من ماله في سبيل البر كتشيد المدارس وتعمير المساجد وتربية الأيتام وبناء المصحات ونحو ذلك فإن الذي يقتصر في الانفاق على الواجب مع كثرة ماله يعدّه الناس في جانب هذا بخيلاً وإن ارتفع عنه ما يترتب على البخل من المؤاخذة الدينية. هذا ولا بد في الكرم من أن يكون صاحبه مدفوعاً بطبيعته كما تقدم فمن بذل المال تكلفاً بسبب قسري كأن يرغبه عليه حاكم أو لغرض من الأغراض الأخرى كالحصول على جاه أو رتبة أو مدح أو شهرة فإنه لا يكون كريماً

مضار الشح

وآثاره السيئة بين الناس

شر مضار الشح وأكبر آفاته فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتواضع من بينهم وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك لأن الشح يحبس التعاون بطبيعته ولا تسمح نفسه ببذل شيء من ماله ولو يسيراً لمساعدة الضعفاء فتمتلئ قلوبهم ضغناً عليه وتثور أنفسهم حسداً عليه فإذا فشى الشح في أمة كانت نتيجة فوضى الاشتراكية التي يترتب عليها سفك الدماء واستحلال المحارم لذلك يشير قول النبي ﷺ «وإياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالقطيعة ففجروا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا» من حديث رواه أبو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد فعني قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا أمرهم عن الكف عن معونة الناس وقبل الشح الحرص على ما عنده غيره. والبخل الحرص على ما عنده. وكذلك قوله ﷺ «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم» رواه مسلم

فذلك صريح في أن الشح خطر اجتماعي كبير يترتب عليه هلاك الأمم وفناؤها لأن الإنسان بحسب تكوينه الطبيعي وفطرته التي فطره الله عليها محتاج إلى التعاون مع غيره في هذه الحياة فلا يمكنه

أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفرداً بل لا بد له من ذلك في الاستناد الى غيره والتعاون معه في كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى في التراب. وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره فتراه في حال طفولته محتاجاً الى غيره في كل شئ "فاذا ما نشأ وترعرع استقل في بعض أموره ولم تنقطع حاجته في البعض الآخر حتى بعد أن يبلغ أشده وتعلق به تكاليف الحياة التي تسوقه الى مزاحمة غيره في وسائلها فانه لا يمكنه أن يقطع مراحلها الا بمساعدة غيره والتعاون معه ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الانساني وبقاء العمران وكذلك التراحم بين الناس بان يرحم قويمهم وضعيفهم ويساعد غنيهم فقيرهم ويواسي صحيحهم سقيمهم فانه لازم من لوازم الانسانية والشع ينافي التعاون والرحمة جميعاً فمحال على الشحيح ان يعين غيره وهيبات ان تجود الرحمة الى نفسه سبيلاً لأن الشح يدعو الى أن يقطع ارحامه وأقرب الناس اليه واعلقتهم به فضلاً عن البعدين عنه . يدعو الى القسوة والغلظة فلا يغيب مكروبا ولا يعين ضعيفاً ولو توقفت حياته على معوته . يدعو الى أن يكسب المال من اى طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام . يدعو الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شئ منه ولو كان من أبنائه وأهله وقد يفضى به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء . يدعو الناس الى كراهة صاحبه والحقد عليه وهم لا يتأخرون عن أذيته متى وجدوا لذلك سبيلاً . فلا ريب في أن الشح من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الانساني وتقضى على صلاح العمران وهلاك الأمم لا محالة كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ومن أجل ذلك فرض الله على أرباب الأموال أن يعملوا للفقراء جزءاً من أموالهم قال تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) كما فرض عليهم التعاون على البر والتقوى قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان) وقد حدث رسول الله ﷺ على التراحم بين الناس فقال « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » من حديث رواه البخارى ومسلم . وقال لا تنزع الرحمة الا من شقى رواه ابو داود وغيره الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على ضرورة التراحم بين الناس والحك على التعاون في جميع شؤون الخير والشحيح لا يبالي بأمر الله ولا بتأثر بزجر رسول الله ولا يعنيه في سبيل الحرص على ماله . أخربت الدنيا أم عمرت . أشقى الناس أم سعدوا . أضلوا أم اهتدوا وذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من الشح فقال « اللهم انا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الحيا والمات » رواه مسلم وغيره

ونحن نستعيز بما استعاذ منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنسأل الله الوفاية من الشح إنه سميع الدعاء

هل الشح صفة

طبيعة في الانسان

هو رذيله من الرذائل النفسية وصفة منحطة من أسوأ صفات الانسان تنشأ غالباً من فرط الحرص على المال والأمل في استمرار الحياة والخوف من الفاقة والفقر وهل هو صفة طبيعية لازمة لبعض الأنفس فلا ينفع فيه العلاج . أو هو صفة عارضة تأتي وتزول وينفع فيها العلاج رأيان لعلماء الأخلاق . فمنهم من يقول إن بعض صفات النفس صفات طبيعية كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعمور والصمم وغير ذلك . وبعضهم يقول إنها صفات عارضة تأتي وتزول . والواقع أن بعض صفات النفس قد تتمكن منها وتملكها من جميع نواحيها لأسباب مختلفة فتصبح لازمة لها فيتعذر زوالها . لا فرق بين أن تكون صفة مدح كالعلم والكرم . أو صفة ذم . كالبخل والحسد فاننا نعلم من أحوال بعض السكراء . والبخلاء ما يجعلنا نجزم بذلك . فمن السكراء من لا يبالي بذهاب كل ماله وروحه في سبيل الكرم ولا يمكن أن ينثنى عن ذلك بأي حال ومن البخلاء من يضحى شرفه وكرامته ويعيش بائساً متسولاً في سبيل جمع المال والحرص عليه ولا يتحول عن ذلك بأي وسيلة من الوسائل . وإذا رأيت واحداً منهم يرغم على بذل شيء فذلك لا يناق الشح لأن الكريم هو الذي يكون مسوقاً للبذل بطبيعته فتي تمكنت الصفة من النفس أصبح زوالها متعذراً ولكن لم يكن ميؤساً من زوالها كاليأس من زوال العمى مثلاً . أما إذا لم تتمكن الصفة من النفس ولم تصبح داءً عضالاً لها فانها تزول بالعلاج والوسائل الفعالة . وذلك مشاهد أيضاً . فانك ترى بعض الناس يخل زماناً ثم يتصدق في نهاية أمره بجزء عظيم من ماله . وبعضهم يكون كريماً ثم يعرض له الخوف من الفقر فينقلب شحيحاً . فالذي يظهر أن الانسان ليس مفطوراً على صفات نفسية خاصة بل كل صفات النفس مكتسبة إلا أن بعضها قد يتمكن من النفس فيصبح ملكة لها يتعذر زواله وبعضها لا يكون كذلك فيسهل علاجه على أن الناس متفاوتون في الاستعداد لقبول المرض والبراء منه

نوادير البخلاء

وللبخلاء نوادر غريبة نروي بعضها عن الامام الغزالي . منها أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً شديداً البخل وكان له نسيب بائس فقال له بعضهم أنت منه بهذه المنزلة واثوابك عمرة

فقال إني لأقدر على إبرة أخيطها بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوءاً إبراً ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب أبو يوسف يستعيرون منه إبرة ليخطوا بها قيص يوسف الذي قد من دبر مافعل . فقال صفلى مائدته قال هي فتر في فتر وصحافها من حب الحشخاش ولا يأكل معه إلا الذباب ولا يحضره إلا الكرام الكاتبون . ومنها أن مروان بن أبي حفصة كان لا يأكل اللحم حتى تشتد شهرته اليه فاذا اشتهاه أرسل غلامه فاشترى له رأساً . فقيل له لماذا لاتأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء . فقال لآنتى آمن عليها فلا يستطيع أن يأخذ أحد منها شيئاً ومع ذلك فآنتى آكل منها ألوانا كثيرة . وخرج مرة للقاء أمير المؤمنين فقالت له واحدة من أهله إذا أعطاك جائزة فاذا تعطينى منها قال إن أعطاني مائة ألف أعطيك درهما فاعطاه ستين ألفاً فاعطاها أربعة دنانير . ومنها أنه كان بالبصرة رجل موسر بخيل فقدم له بعض أصدقائه طعاماً اذيداً فأكل منه وأكثر وجعل يشرب الماء فاتنفخ وأصابه كرب شديد فوصف حاله لأحد الأطباء فقال له يتقياً فأبى أن يتقياً ذلك الطعام اللذيذ وقال الموت ولا ذلك .

واننا نشاهد بيننا أمثال هؤلاء كثيرين لم نر حاجة إلى التطويل بذكرهم .

الجود والسخاء

ذكرنا لك أن الشح من الأمراض النفسية المردولة التي يجب على العقلاء علاجها وتطهير أنفسهم منها لما يترتب عليها من المضار الاجتماعية والعمرانية . ويقابل الشح الكرم ويسمى الجود والسخاء وهو من الصفات النفسية الممدوحة التي يسود بها صاحبها ويكون له السلطان الكامل على نفوس الناس والمكانة الرفيعة في قلوبهم . وقد علمت مما تقدم أن القوانين الشرعية تجعل لانفاق المال حدوداً فيجب مراعاتها وعدم الخروج عنها حتى يتمكن الانسان من قطع مراحل الحياة آمناً مطمئناً قادراً على أداء الوظائف المطلوبة منه بدون انقطاع فلا يقتر ولا يسرف عملاً بقوله تعالى (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) فانه اذا بخل حمله البخل على الكف عن أداء الحقوق والواجبات . واذا أسرف نقد المال فاعجزه ذلك عن القيام بتلك الحقوق . فالنتيجة في الحالتين واحدة وهي عدم أداء الحقوق والواجبات إن عاجلاً أو آجلاً إلا أنها في البخل أشد ذماً واغش أنراً لأنه متمكن من الأداء قادر على الوفاء ولم يفعل ضناً بالمال . أما المبذر الذي ينفق ماله ولم يحمد مايقوم به من الحقوق فهو وإن كان ملوماً محسوراً إلا أن لومه أقل وذمه أهون . وقد بينا أن الشح هو الامساك حيث يجب الانفاق كالامساك عن الانفاق على الواجبات الدينية والتفقات الشرعية كالنفقة على الأهل والزوج والولد والنفقة على ما يحفظ الكرامة والعرض والدين فكل ذلك ضرورى . وكذلك بينا أن التبذير هو أن ينفق المال في غير موضعه فيضيعه

في شهواته الفاسدة ولذاته المحرمة ويصبح محتاجاً بآثامه . أما الاقتصاد فهو التوسط في الأمور بان ينفق في الواجبات والحقوق ويدخر شيئاً من ماله ينفعه عند الحاجة إليه كما تقدم .
وأما الكرم والجود فهو أن ينفق ما تقتضيه الواجبات والحقوق وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع . وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الجود . منها قوله ﷺ :
« ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور » رواه الطبراني وغيره واسناده صحيح .
فالكرم يحبه الله تعالى لأنه صفة من صفاته كما يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها . فالكرماء محبوبون من ربهم ومن أحبه الله فقد أمن غوائل الحياة الدنيا والآخرة وأصبح ظافراً بسعادة الدنيا والآخرة . وكذلك حال الكرماء فانهم لن يمسه سوء في دنياهم فانك ترى الناس يقصدونهم ويسعون في مرضاتهم وخدمتهم . ويبادرون الى إنقاذهم مما قد يصيبهم من مكروه لأن آثار إحسانهم تدفع الناس الى ذلك بدافع الرغبة الطبيعية وتحثهم على احترام الكرماء واجلالهم واحلالهم أرفع محل وأعظم مكان . ذلك في الدنيا . وأما في الآخرة فانك قد علمت أن اتفاق المسال في الواجبات الدينية والحقوق الشرعية من أكبر وسائل السعادة الآخروية . والكرم لا يحجم عن الاتفاق حيث يجب الاتفاق فهو محبوب لله عز وجل من أجل ذلك وله الجنة خالداً فيها جزاء كرمه وطاعة ربه وهذا جزاء المحسنين

وقد يبلغ الكرم من النفوس مبلغاً عظيماً فيملأها من جميع جهاتها ونواحيها . ولهذا أمثلة كثيرة ونوادير لا تحصى عند حد مذكورة في كتب الأدب والتاريخ وأغلبها منقول عن العرب فانهم كانوا يتعشقون صفة الكرم ويرونها من ضروريات الحياة . ومن ذلك أن عبد المطلب جد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يطعم الطير والوحش مبالغة في الكرم ورغبة في الاتفاق . وقد حذا حذوه ولده هاشم فكانت له مائدة مستمرة لا ترفع شتاء ولا صيفا وكذلك حاتم طي . فان نوادره في الكرم مضرب للأمثال . وغيرهم كثير . كعن بن زائدة الشيباني ونحوه .

أما كرم رسول الله ﷺ فانه لا حد له فيوصف . ولا نهاية له فيعرف قال أنس « إن رسول الله ﷺ لم يسأل عن الاسلام شيئاً إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جيلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال يا قوم أسلوا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » رواه مسلم . وفي هذا الحديث دلالة على أن الكرم له من السلطة على نفوس الناس ما ليس لغيره من الأمور فقد فعل في أنفس هؤلاء ما لا تفعله السيوف من تغيير العقيدة التي كانوا يقصدونها على أنه ينبغي أن يلاحظ القانون الشرعي المأز ذكره في الاتفاق وهو عدم التبذير والاسراف ومجاورة الحقوق والواجبات لأن في هذا نفاذاً للبال الموجب للعجز عن أداء الحقوق والواجبات والاحتياج الى الناس وهو شر عظيم على المرء لأنه يذله ويضيع كرامته ويسقط مروءته وكل هذا لا يرضاه الدين ولا يقره العقل ولهذا قال الأعرابي إن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة وقد كان ﷺ آمناً من شر الفاقة عالماً بان الله تعالى لن يخزيه فكان ينفق على ذلك الحساب ﷺ

الحرص والطمع

والقناعة

لأنواع في أن المال مرغوب فيه بطبيعته ومحجب إلى الناس على اختلاف أحوالهم وتباين أغراضهم كما تقدم في مبحث مدح المال وذمه وقد ذكرنا هناك بعض الأحاديث التي تشير لذلك وسند كرك لك هنا بعضاً آخر . فمن ذلك ما رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح عن أبي واقد الليثي قال « كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتيناؤه يعلننا بما أوحى إليه فجئته ذات يوم فقال إن الله عز وجل يقول أنا أنزلنا المال لأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون إليه الثاني ولو كان إليه الثاني لأحب أن يكون إليهما الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » وما رواه مسلم وغيره من أن النبي ﷺ قال « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » والحديث الأول يشير إلى الغرض الذي من أجله خلق الله المال وهو أن يستعين به الناس على أداء الواجبات الدينية والحقوق الشرعية وينفقونه في سبيل السعادة والبر . فمن كل عقله واستنارت بصيرته فإنه لا يندفع بعامل الحب الطبيعي للمال إلى الشح به في مواطن الحقوق والواجبات كما لا يليق به أن تدفعه الشهوات والمذات إلى الإسراف فيه وانفاقه في غير حقه فالحديث الشريف يشير إلى ما قد تستلزمه الرغبة الشديدة في المال من الشح به . أو التبذير فيه ويقول إنه ما خلق من أجل هاتين الحالتين وإنما خلق لينفق في الواجبات الدينية والانسانية التي يقرها الدين . وكذلك يحذرنا الحديث عن كسب المال من طريق حرام ويلفتنا إلى أنه لا ينبغي أن يدفعنا حبه إلى الشره وجمعه بأي وسيلة ولو لم تكن شريفة مشروعة . فمن غلبه حب المال إلى شيء من ذلك فيجب عليه أن يتوب ويندم ويعمل بما أمره الله به فإن الله يتوب على من تاب . وأما الحديث الثاني فهو نص في أن حب المال يستمر قويا في الإنسان حتى في حال هرمه فإن المرء يهرم وحب المال يبقى شاباً فيه لا يضعف ومثله طول العمر . وقول رسول الله ﷺ بيان لأمر طبيعي صحيح لا شك فيه والغرض منه لفت الناس إلى ما يترتب على ذلك الحب القوي والرغبة الشديدة من الخروج عن حدود الدين فلا يذهب به إلى الشح والحرص والطمع وهي من الرذائل المذمومة في نظر الدين وقد ينال لك ما في الشح من المفاسد والمضار . وأما الحرص على تحصيل المال فإنه من أسباب هلاك المرء ونقصان مروءته فقد يقوده الحرص إلى أن يلقى بنفسه في المخاطر ويزج بها في المآزق التي لا يستطيع الإفلات منها كأن يزين له الحرص التزوير . أو النصب والاحتيال فيوقعه في العقاب الدنيوى والاخروى . أو يحسن له الغش والكذب أو يدفعه إلى

مزاحمة من هو أقوى منه فيسعى في هلاكه فضلاً عما يستلزمه الحرص من الذل والخضوع لمن هو أدنى منه قدراً متى استطاع أن يأخذ منه درهما . وقد يفضي الحرص بالمرء إلى أن لا يبالي بعرضه ودينه في سبيل الحصول على المال وذلك نهاية الانحطاط وغاية الضعة وأن من يفعل ذلك لا يصح أن يكون في عداد الانسان بل هو إلى الحيوان أقرب شها من الانسان .

وأما الطمع فصاحبه مرذول عند الناس ثقيل على أنفسهم محقر مهان ناقص القدر والقيمة في نظرهم لأنه يطمع فيما لا حق له فيه ويريد أن يراحمهم فيما كسبه بمجدهم واجتهادهم وما كان له أن يقف وهم سائرون ويتكسل وهم مجدون فذلك شر وييسل يجر إلى الفاقة والفقر والانصراف عن العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والطمع فإنه هو الفقر وإياكم وما يعتذر منه » أخرجه الطبراني في الأوسط فضلاً عما يترتب على الطمع من الرذائل التي تترتب على الحرص كالذلة والهوان واسقاط المروءة وغير ذلك من رذائل الصفات فلا غرو إن حثت الشريعة الاسلامية على القناعة ونهت عن الحرص والطمع فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » متفق عليه . وقد تقدم في مدح المال . فليس الغرض من الحياة أن يجمع الانسان المال من أى طريق مهما ترتب على ذلك من الضعة والانحطاط والذلة والهوان إنما الغرض من الحياة أن يعيش الانسان فيها كريماً لا يسخر منه عظيم ولا يحقره غنى لتعففه عن الناس وتمسكه بالوسائل الشريفة في جمع المال . وذلك أحسن الأدب وأفضل التربية وأجل النصائح لمن كان له قاب أو القى السمع وهو شهيد

فالقناعة بما أتبع للانسان في هذه الحياة من مال ومتاع هي خير ما يحرزها من وسائل الكرامة والعزة وأفضل ما يذخره ويكنزه ليستغنى عن الناس عند الحاجة ومن استغنى عن الناس فقد عز وعلا . قال عون بن مالك الأشجعي « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تباعون رسول الله ﷺ قلنا أو ليس بايعناك يا رسول الله ثم قال ألا تباعون رسول الله ﷺ فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قاتل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا . وأمر كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئاً قال فلقد كان بعض أولئك نفر يسقط صوته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه » ومعناه النهى عن سؤال الناس ما لا يستحق . أما المعونة بالناس في أمور الحياة فهو لازم متى كانت بالوسائل المشروعة ولكن هؤلاء الذين بايعوا النبي ﷺ قد بالغوا في تنفيذ بيعته عليه الصلاة والسلام واحتاطوا في ذلك إلى أبعد مدى وهذا شأنهم رضوان الله عليهم في الحرص على تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك به من جميع النواحي والجهات وقد ورد في ذلك آثار كثيرة فلتنقل لك منها شيئاً .

قال عمر رضي الله عنه إن الطمع قمر وإن اليأس غنى وإن من يئس بما عند الناس استغنى عنهم رواء هشام بن عروة عن أبيه . وكتب بهض بنى أمية إلى أبي حازم سلمة بن دينار الأعرج يعزم

عليه إلا رفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجي إلى مولاي فسا أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت . وقال عمر رضى الله عنه ألا أخبركم بما استحل من مال الله عز وجل جلباني لشنائي وقبظي وما يسعني من الراحلة لحبي وعمرتي — أى الراحلة التى يركبها ليحج عليها — وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفهم ولا بأوضعهم ووالله ما أدرى أيحل ذلك لى أم لا . فقد حملته العفة والزهد فى أموال الناس إلى أن يشك فى أن هذا القدر زائد عن حاجته أم لا وليس بغريب أن يصدر مثل ذلك عن سيدنا عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه . وقال أبو محمد الزيدى دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رأى بسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتها وقد أضفت إليهما ثالثاً وأنشدنى .

إذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ماؤه * ويكفيك سوات الأمور اجتنابها
ولا تلك مبذالاً لعرضك واجتنب * ركوب المعاصى يجنبك عقابها
أخرجه ابن أبي الدنيا فى أخبار الخلفاء وقال بعضهم :

إذا أعطشتك أ كف اللثامسة * تك القناعة شيعاً ورياً
فكن رجلاً رجله فى الثرى * وهامة همنه بالثريا
فإن إراقة ماء الحيا * ة لدون أراقه ماء الحيا

وقال عبد الله بن سلام لكعب الأحبار ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج ومعنى ذلك أن تلك الصفات لا تجعل للعلم ثمرة فإن الطمع وشره النفس وطلب الحوائج تجعل صاحبها أسيراً لمن يطمع فى ماله . أو يطلب منه حوائجه فيتبعه فى هواء حيث كان فلا يحفل بما يقتضيه الدين . ولا يبالي بما يوحى به العلم فيصبح العلم ضائعاً بضباع آثاره وثمراته إذ لا فائدة للمعلومات التى يشغل بها الإنسان رأسه إذا لم يعمل بما تقتضيه من نصرة الحق والفضيلة . وخذلان الباطل ومحاربة الرذيلة . وخدمة المجتمع الانسانى وتربيته تربية صالحة فهذا هو ما يتطلبه العلم الصحيح وما يقتضيه الدين الحنيف . ولكن الحرص على المال والطمع فى لذات الحياة وزخارفها وشره النفس فى طلب الحاجات يقضى على ذلك قضاء مبرماً ويجعل العالم شراً من غيره لأنه يحاول أن يبرر موقفه فيقلب الحقيقة ويجعل الحق باطلاً والباطل حقاً وبذلك يكون حرباً على العلم والدين يهدم فيهما بمعاول الشره والطمع وحب المنصب والجاه والمال . وتلك هى فتنة المرء فى دينه ومروءته .

نسأل الله تعالى الوقاية من شرها إنه سميع الدعاء .

علاج اتفاق المال في غير حقه

بيننا لك في مبحث الشح أن الباحثين اختلفوا في صفات النفس فمنهم من قال إنها فطرية غير قابلة للزوال كصفات الجسم اللازمة مثل العمى والعور ونحوها . ومنهم من قال إن كل صفات النفس قابلة للزوال وأن الانسان في هذه الحياة مستعد للانتقال من حسن إلى سيء ومن سيء إلى حسن . فانا نرى كثيراً من الناس ينتقلون من جبن إلى شجاعة ومن شجاعة إلى جبن ويتحولون من بخل إلى كرم ومن كرم إلى بخل بحسب ما يكتنفهم من العوارض والأحوال . الا أن بعض النفوس أكثر استعداداً لقبول الصفات من البعض فتمكن منها . ويعسر زوالها وقد قدمنا لك ما نراه في هذا الموضوع هناك فارجع إليه إن شئت انما الذى نريد أن نقوله هنا هو أن الشريعة الاسلامية تدعو الناس جميعاً إلى مكارم الأخلاق وتحث كل فرد من أفراد المكلفين على التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل وذلك يؤيد الرأى الثانى لأنه لا فائدة من تكليف الأعمى بإبصار الغنمة مادام العمى غير قابل للزوال كما لا فائدة من تكليف الشحيح بالكرم مادام الشح غير قابل للزوال أيضاً وهكذا . ولا يصح أن يقال إن الشريعة جاءت بالتكاليف العامة بالنظر للغالب من أحوال الناس فإذا وجد من غير الغالب من كان مفطوراً على صفة لا يمكن التحول عنها فهو غير معتبر في التشريع . لانا نقول إن كل فرد من الأفراد مأمور بالفضائل منهى عن الرذائل فلو كانت الرذيلة صفة طبيعية فيه فانه لا يصح تكليفه بازالتها والعمل على غيرها . فمن أجل ذلك ينبغي للمسلمين أن يعالجوا أنفسهم من أمراضهم الباطنة وأن يتأمرؤا بالمعروف ويتناهؤا عن المنكر ويتواصلوا بالحق والصبر عملاً بقول الله تعالى (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه أقسم بصلاة العصر — لما لها من الفضيلة وسمو المنزلة عند الله تعالى — ان الانسان لفى خسران في مساعيه في حياته الدنيا مادام لا يتوصل بها الى السعادة الأبدية فلا ينفعه مال ولا تفيد له لذة ولا تغنى عنه تجارة ولا غيرها من عذاب الله شيئاً الا المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويعملون الصالحات كما أمرهم الله تعالى ونهاهم فانهم هم الذين ربحوا في تجارتهم وظفروا في مساعهم وهم الذين يوصى بعضهم بعضاً بالحق قولاً وفعلًا فلا ينطق الواحد منهم الا بالحق ولا يحكم الا بالحق ولا يعامل الناس الا بالحق وعليه أن يغضب من أجل الحق

وان يذلل كل ما استطاع من جاه وسلطان لتأييد الحق وحق الحق هو الثابت الذي لا يصح انكاره فيشمل الايمان بالله تعالى ورسوله وكتبه والأعمال الصالحة. وكذلك الذين يوصى بعضهم بعضا بالصبر عند المصائب حتى لا يستنزفهم الجزع الى الخروج عن حدود الدين . والصبر على نوائب الزمان حتى يتغلبوا على حادثاتها فلا تلعب بدينهم ومروءتهم . والصبر على لقاء الأعداء الذين يريدون استدلالهم واستبدادهم . والصبر على شهوات النفس ولذاتها فلا تتغلب عليهم ثورتها فتقودهم الى ما تريده من المفاسد والموبقات. والصبر على علاج الصفات الذميمة التي عقلت بالنفس كالشح والعجب والكبرياء وغير ذلك فان على المرء أن يعالجها حتى تبرا نفسه منها وتطهر من شرها . الى غير ذلك . كل هذا داخل تحت التواصي بالصبر وهو معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو خير علاج لتفشي الذنوب والموبقات فان الصفة الذميمة لا تترتب عليها آثارها السيئة مادام الناس يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ولا يرضون عن المجرمين الذين يقتفون السيئات . ومن أجل ذلك لعن الله الذين لا يتناهون عن المنكر فقال تعالى (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية

فلو أن الناس قضا فروا على استنكار الرذائل وتناهوا عن اقتراف المنكرات بتلويب صادقة وعرائم ثابتة لقضوا عليها قضاء مبرما وأصبحت الفضيلة سائدة بينهم محبة اليهم . وانزوى المجرمون وأصحاب النفوس الخسيسة ولم يعد لهم أثر بينهم ولا وجود في بيئتهم وذلك أحسن العلاج الذي كان المسلمون به مستمسكين في أوائل أمرهم فلم يكن للرديلة فيهم مقام ولأجل هذا مدح الله تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وسيأتي الكلام في هذا في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ان شاء الله تعالى .

فالشحيح الذي لا ينفق على الحقوق والواجبات يجب على الناس أن ينهوه عن ذلك قولاً وفعلًا . فاما القول فان على المرشدين أن يبينوا له مضار الشح وآثاره السيئة في المجتمع الانساني وأن يفهموه أن الشح يأتي بعكس المطلوب له من الزيادة في المال لأن الشحيح ينصرف الناس عن معونه فلا يقبلون على معاملته ولا يتعاونون معه في تنمية ماله وأن يبينوا له أن الغرض من المال انما هو الانتفاع به في هذه الحياة والا كان مثل الحجر الملقى على الأرض فانه نوع من الحجر جعله الله وسيلة للتعامل وقضاء الحاجات فليس من العقل أن يكنزه الانسان وهو محتاج اليه ويعيش في هذه الحياة فقيراً محروماً من لذائذها وطيبات رزقها ثم يكون في الآخرة مسؤولاً عن ماله معذباً على ما فرط من أداء الحقوق والواجبات . وذلك هو الخسران المبين

فان كان قد اكتسب الشح من المعاشرة والمخالطة فيجب أن يزهده في معاشره الاشياء ويرغبوه في معاشره الكرماء ومطالعة أخبارهم وشرح ما كسبه من الحمد الخالد والثناء الدائم وما مدحوا به أمتهم من الاتفاق على دور العلم وترقية الأخلاق . وغير ذلك مما يبقى ثوابه مستمراً وأجره لا ينقطع حتى بعد المات .

وأما الفعل فإنه يجب على الناس أن لا يجملوه في أمورهم وأن يظهرُوا له الاشتمال من عمله وأن لا ينزلوه في معاملته منزلة الكريم . وأن يبالغوا في احترام الكرماء وخدمتهم والحفاوة بهم في حضرة الشحيح كي تبعثه الغيرة إلى الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وقد تكون الثرية بذلك من أحسن ما ينفع ويفيد . وما قصة الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بخافية على أحد فلقد عوقبوا بمقاطعة اخوانهم اياهم مقاطعة تامة في كل أمر من أمورهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم . ثم تاب الله عليهم كما قصه الله تعالى في كتابه العزيز .

أما المبدّر الذي ينفق المال في غير حقه فإنه يجب أن يحذره المرشد عاقبة الاسراف والتبذير من افلاس يقوده إلى الاحتياج إلى الناس ويذهب به إلى المذلة والهوان . ويزهده في الشهوات التي لا نتيجة لها إلا القضاء على صحته وكرامته . وإن كان الاسراف حاصلًا عنده من المعاشرة والمخالطة فإنه يجب عليه أن يزهده في معاشرّة المبدّرين الذين لا همّ لهم إلا القضاء على أنفسهم وأموالهم في سبيل الشهوات واللذات وأن يضرب له الأمثال بمن قضى الاسراف على مجدهم وكرامتهم فأصبحوا أدلة بعد أن كانوا أعزة وعبيداً بعد أن كانوا سادة وإن في ذلك لأكبر زاجر للنفوس عن تقليد المترفين في ترفهم والاقتداء بهم في التوسع في الماء كل والمشرّب والمسكن ومباراتهم في اللذات والشهوات بدون حساب لما يترتب على ذلك من نفاد المال والرجوع إلى شظف العيش وذل الحاجة وربما لا يجد بعد ذلك قوتاً ضرورياً فيصبح بائساً يتكفف الناس أو يصبح عالة على غيره وقد تدفعه تلك الحالة إلى الهلاك كما وقع لبعض من لا خلاق لهم ولا عزيمة عندهم . فإن التوسع في الشهوات قد أفضى بهم إلى الافلاس فكبر عليهم الرجوع إلى خشونة العيش وشظفه فقتلوا أنفسهم ظلماً وعدواناً ظناً منهم أن القتل يريحهم من التعاسة والشقاء وهؤلاء يكادون يكونون غير مؤمنين لأنهم لو استيقنت أنفسهم الدار الآخرة واطمأنوا لها لعلموا أن الانتقال إليها على هذه الحالة إنما هو انتقال إلى شقاء دائم وعذاب ألیم لا يقاس عليه شيء من بؤس الدنيا وشقاؤها مهما اشتد أمره وزاد خطره فينبغي لمن وقع في تلك المصيبة أن يقابلها بالصبر والشجاعة وأن يحتمل ما يترتب عليها من خشونة العيش وبؤس الحياة وأن يرجع إلى الله تعالى ويتوب بما كسبت يده وأن يوطن نفسه على أن يعمل كل ما يتاح له عمله في هذه الحياة مادام ذلك العمل مشروعاً . فلعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمراً . وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات . (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)

شهوة الذرية

لأريب في أن الإنسان مفعور على حب البقاء بل البقاء الذي لديه ولكنه يعلم أنه هالك لا محالة وأنه لا بد لوجوده من نهاية ينتهي إليها سواء أكانت قرية أم بعيدة وذلك ما يحزنه ويكدر صفوه في هذه الحياة فمن أجل ذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل له في نسله وذريته بعض العوض عن ذلك فإنه يرى بقاءه مستمرا في ولده فلا يندم على جهاده في معترك الحياة ولا يأسف على ما بذله من مجهود في ترقية العمران . ولا يحزن على مفارقة ما حصل عليه بكده من مال ومتاع لأنه يعلم أنه تركه لولده وهو جزء منه فكأنه هو الذي يستمتع به وكأنه باق لم يدرکه الفناء تلك نظرية بدئية يجدها في نفسه الذكي والقي ويدركها العالم والجاهل فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاءه مستمرا ويعلم أنه خليفته في هذه الحياة الدنيا وإن كان بعض الناس لا يحسن التعبير عن ذلك

وأیضا فإن كل واحد يشعر بحاجة إلى معين مخلص يحمل عنه بعضا من متاع الحياة وأعبائها ويكون عدته عند نوائب الزمان ومحن الأيام ومن عساه أن يكون أحق من الولد وأجدر بثقة الوالدین . فشهوة الذرية وحب الولد وإن كانت عواملها تتفاوت عند بعض الناس ولكنها من أقوى الشهوات عند المجتمع الإنساني من حيث هو فمن أجل ذلك يقول الله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنین) كما ذكرناه لك آنفا

وإذا قد علمت ذلك فاعلم أن هذه الشهوة هي كسائر الشهوات تارة تكون مدحوة وتارة تكون مذمومة فاما المذمومة منها فهي أن يفتتن المرء بأولاده وذريته فلا يبال أن يرتكب من أجلهم الجرائم ويقترب بسيئهم الموبقات والآثام . يشتهي الأولاد والذرية من أجل أن يجمع لهم مالا حراما ويظلم خالق الله ويستسهل في سبيلهم الفسوق والعصيان . يشتهي الأولاد وهو لا يقدر على تربيتهم تربية صالحة فيذرهم أعضاء عاطلين يضررون المجتمع الإنساني ويؤذون الناس بشرمهم . يشتهي الأولاد ولكنه لا يعدل بينهم فيفضل ذكورهم على إناثهم أو يفضل بعض ذكورهم على بعض مع أن النبي ﷺ رغب في المساواة بين الذكور والإناث في المعاملة فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال «من كانت له أنثى فلم يدهنها حية كما كان يفعل في الجاهلية - ولم يهناولم يؤثر ولده - يعنى الذكور - عليها أدخله الله الجنة» رواه أبو داود والحاكم وقال الحاكم صحيح الإسناد وبالجملة فإن شهوة الأولاد إذا كانت تنفضى إلى المظالم وانتهاك الحرمات وتعدى حدود الله تعالى فهي شهوة مذمومة وفتنة شديدة وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة)

وأما المددوحة منها فهي ان يشتغل الأولاد ليكمل بهم نظام العمران وينتفع بهم المجتمع الانساني فيعلمهم العلم النافع ويربهم على الأخلاق المرضية التي تنتج ذلك الغرض الجليل ويستعين بهم على عمل البر والخير فينتفع بهم في حال حياته ويكون بقاءه مستمرا فيهم بعد وفاته فلا ينقطع ثواب عمله كما قال عليه الصلاة والسلام «إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث» فذكر منها ولدا صالح يدعو له وبالجملة شهوة الأولاد المددوحة هي التي تقضي الى الخير ونفع المجتمع الانساني وبناء العمران ولهذا رغب النبي ﷺ في تكاح الولود ونهى عن نكاح العقيم فقد روى عن معقل بن بشار رضى الله عنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقال يا رسول الله انى أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال الا أنها لاتلد أفأتزوجها فنهاه ثم اناه الثانية فقال له مثل ذلك ثم اناه الثالثة فقال له تزوجوا الودود الودود فاني مكاثر بكم الامم» رواه ابوداود والنسائي والحاكم والمفظة له وقال صحيح الاسناد

تربية الأولاد

تربية الأولاد فرض لازم لا يصح اهماله فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» رواه ابن ماجه فهذا الحديث يأمر بمراقبة الأولاد بمراقبة دقيقة وتاديبهم احسن الادب فواجب ديننا على الوالدين أن يقوموا بتلك المراقبة كل واحد منهما بدوره في داخل المنزل وخارجه فيمرناهم على القدر النافع له من الشهوات ويحبوا اليه العمل الصالح بقدر ما يستطيع ادراكه . وأول ما يغلب على الصبي شهوة الطعام والشره في الأكل فمن الضروري أن يراقبوا في ذلك مراقبة دقيقة ويمرناهم على الغذاء القليل الذي لا يضر معدته ويحول بينه وبين تناول كل ما يشتهيه من اصناف الطعام المختلفة التي لا تستطيع المعدة هضمها فيتعرض بذلك للآلام والامراض ويشب على الشره وكثرة الأكل فيتعلم الكسل والبلادة ويكون همه بطنه وقد نهى الدين عن ذلك كما تقدم لك في الكلام عن شهوة البطن . وكذلك ينبغي مراقبته عند ما يراهق فلا يسمح له بمصاحبة الاشرار ومخالطة الفجار فاسدى الأخلاق وناقصى التربية كما لا يسمح له بغشيان دور الفساد ومحال اللهو والخلاعة والمجون ويجب اليه العمل لدينه ودنياه بحيث يصرف كل همه الى تعلم العلم النافع وما يلزم له في قوام حياته من صناعة وزراعة وتجارة وأن يؤدي الفرائض الدينية ولا يهمل شيئا منها ويجب أن يترك له وقت يروض فيه نفسه حتى لا يسأم العمل وأن يفضى عما يفرط عنه من بعض المخالفات التي لا تضرب بالأخلاق اذا فعلها خفية وكان ينجل من اظهارها على أن يكون كل تأديبه بالترغيب والحجة المناسبة لعقله فيفهم ان العمل النافع ينفعه في حياته العاصرة والمستقبلية وتضرب له الامثال بالعاملين النافعين الذين رفعهم العمل الى الدرجات الرفيعة وبالجهلة وفاسدى الأخلاق الذين ساء حالهم بسبب ذلك وانحطوا الى الدرك الاسفل ويرغبه في أن يكون مثل الاولين ويحذره عن أن يكون مثل الآخرين وبما يجب التنبيه له انه يجب على الوالدين

أن ينفذا الخطة الصالحة التي يرسمها لاولادها عمليا بأن يلزموها في تنفيذها ملازمة تامة كما يشير الى ذلك الحديث الشريف فانه عليه الصلاة والسلام يقول الزموا اولادكم . فلا يكفي مجرد الترغيب بالقول وضرب الامثال . أما الضرب والتخويف فقد ينتجان عكس المطلوب ويتركان أثرا سلبيا في نفس الولد يصرفه عن المقصد النافع ويزهده في عمل البر ويجعله حريصا على ما منع عنه من الفساد فيلج في طلبه ويتنهر الفرص ليعمله خاسرة فضلا عما يتركه الضرب والتخويف في النفس من الجبن والخيالات الفاسدة التي قد تصاحب الانسان في حال كبره أيضا فيشرب على الجبن والخوف من الخيالات الكاذبة وقد تنأثر أعصابه بهتيج كاذب من غير فائدة تعود على التربية والأخلاق وذلك شرو وبال نعم اذا تأكد المرء من أن طبيعة التلذذ لا تصاح الا بالزجر والتخويف فانه يصح أن يستعمله في الموضع المناسب له بحيث لا يفرط فيه فترتب عليه تلك الآثار السيئة وبالجملة فالمرء كالطبيب الماهر الذي يعرف العلة ويصف لها ما يناسبها ولكن لا بد من المراقبة الفعلية والملازمة العملية التي يشير اليها الحديث على أي حال

فاذا بلغ الغلام حد شهوة الفرج فيجب على والديه أن يحولاه بينه وبين عناصر الفساد وما يثير هذه الشهوة ويراقبوا في ذلك مراقبة دقيقة فان هذه الشهوة من اشد الشهوات خطرا وأبعدها اثرا إذ قد تقضى على مستقبل الشباب وتفسد عليهم حياتهم المادية والأدبية وتوردهم موارد الهلكة لانها تعرض أبدانهم للأمراض المادية وعقولهم للأمراض المعنوية وفي ذلك بلاء مبین . وأحق علاج تعالج به تلك الحالة هو القيام بعمل الواجب الذي تقوم عليه حياة الشباب في مستقبله وصرفه عن كل ما يثير تلك الشهوة ويهيئها من مكنها فاذا درج على ذلك سهل عليه قطع ذلك الدور آمنا على صحته وعقله والا فقد يقع في أشد البلاء وأصعب الأخطار

شهوة الجاه والسلطان

هذه شهوة طبيعية في الانسان فهو مفتور على أن يكو ذا جاه محب اليه أن يكون ذا سلطان يطاع أن أمر أو نهى وسيطر على قلوب الناس ويستولى عليهم في كل الأمور ولقد علمت مما تقدم أن الانسان منتصف بصفات الربانية لأن روحه أمر رباني كما وصفها الله تعالى بقوله (قل الروح من امر ربي) ومعنى كونها ربانية أنها سر من الأسرار التي لا يقيس الوقوف على حقيقتها فهو من هذه الجهة ميل بطبيعته الى العظمة والكبرياء ومحبة الجاه والسلطان . وهل شهوة الجاه أقوى أو شهوة المال . والجواب أن التفاضل اذا كان بينهما في ذاتها فلا شك فيه أن شهوة الجاه أقوى من شهوة المال لان المال في ذاته كالحجر لا يضر ولا ينفع أما اذا كان التفاضل بينهما باعتبار الافراد الذين يتصفون بهما فذلك ينبغي أن يكون فيه تفضيل وذلك لان شهوة الجاه اوان كانت طبيعة في الانسان كما ذكرنا ولكنها تتفاوت عند الافراد بالقياس الى شهوة أخرى فمن الناس من تتحقق عنده هذه الشهوة بأقوى معناها وهذا الفريق هو الذي يفضل عنده حب الجاه على حب المال لان شهوة الجاه عنده هي الباعثة على

حيثئذ . ومن الناس من يقدس المال في ذاته كما هو الحال عند البغلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ويمحرون أنفسهم وأهليهم منافع الحياة الدنيا والطيبات من الرزق حتى انك ترى أحدهم يلبس الخاق من الثياب ويطوى من الجوع ويمرض نفسه لكل مذلة ومهانة واحتقار من أجل دريهمات يسيرة مع كونه ذا مال كثير وقد اسلفنا لك ذلك في الكلام على شهوة المال

وأيضاً فقد ينصرف المرء عن شهوة المال والسلطان لشغفه بشهوة أخرى تعارضها كما إذا منى بالشغف بشهوة الفرج فانها قد تفضي به إلى الذلة والهوان والخضوع إلى من يشتهي وقاعها ولو ذهب كل ساطانه وضاع كل جاهه وقد يترك ما يملكه خضوعاً لتلك الشهوة فالتفاضل بين الشهوات الطبيعية يختلف باختلاف طبائع الناس واستعدادهم للتأثر بها . فمنهم من يغلب عليه حب المال . ومنهم من يغلب عليه حب الجاه . ومنهم من يغلب عليه حب النساء . ومنهم من يغلب عليه شره الطعام . ومنهم من يغلب عليه حب الزينة واللباس والتناول في البنيان وهكذا . وقد يستدل على كون الجاه أحب من المال بأن التوصل إلى المال بالجاه أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . ألا ترى أن الرجل العظيم الذي يسيطر على القلوب ويكون له مكانة فيها يتيسر له أن يجمع المال بسهولة لأن القلوب تبذل المال لمن تعتقد فيه الكمال عن طيب خاطر أما الرجل الذي الخسيس الذي يعتز على كثر مثلاً فانه لا يتيسر له بالمال أن يسيطر على النفوس وتكون له مكانة في القلوب . وذلك الدليل ياتج إذا كانت البيئة صالحة تقدر الفضيلة وتحقر الرذيلة أما إذا فسدت البيئة وأصبح الانسان عبداً للمادة فان صاحب المال يكون له الجاه والسلطان وقد يستدل لذلك بأدلة أخرى خطائية لاحاجة لذكرها

إذا علمت ذلك فاعلم أن شهوة الجاه والسلطان اذا اتجعت النفوس اليها ولم تعارضها شهوة أخرى كانت من أقوى الشهوات وأبعدها مدى لأنها لا تقف عند حد ولا تنتهي عند غاية فان صاحبها يشتهي أن يمتد سلطانها وينبسط نفوذها ويسرى جاهه في كل واد وعلى أهل كل قطر حتى ولو لم يذهب اليه في حياته لما علمت من أن النفس نزاعة إلى حب السلطة والجاه بطبيعتها .

ولا ريب في أن شهوة الجاه كغيرها من الشهوات تارة تكون بمدوحة وتارة تكون مذمومة . فاما المدوحة منها فهي أن يحب الجاه ليكون ذا تأثير على قلوب الناس فيما يصلح حالهم في الدنيا والآخرة فيأتمرون إذا أمرهم بمعروف وينتهون إذا نهاهم عن منكر لا يحب ذلك إلا الله تعالى وابتغاء رضوانه لا يدفعه لذلك سمعة أو رياء ولا يسوقه اليه حب مدح الناس أو كراهية ذمهم فان من يتأثر بأعماله بالناس يكون تابعاً لأهوائهم فيها ومن المحال أن يكون الحق تابعاً لأهواء الناس وشهواتهم . الجاه المدوح هو ما يترتب عليه نصرة الدين وصلاح نفوس المسلمين وما يقصد صاحبه بكل أعماله مرضاة الله رب العالمين .

ومن ذلك حب الرئاسة والحكم فان من أحب شيئاً منها ليقم العدل بين الناس وينصر الحق في مواضعه ولا يفتقر بسلطة فيكبر على الناس ويحقرهم ويظعن عليهم بل يجعل كل همه في عمل لإصلاح الذي يرضى عنه ربه ويسعد به خلق الله الذي سخره لخدمتهم وأكرمه بالعقل الراجح منهم فان ذلك يكون بمدوحاً في نظر الدين . وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الحاكم العادل

منها ما روى عن عياض بن حماد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو عيال » رواه مسلم — والمقسط هو العادل — ومعنى الحديث واضح فيما ذكرنا لأنه صريح فى مدح صاحب السلطان الذى يعدل بين الناس ووعد به الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين .

ومنما ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رقيق وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق » رواه الطبرانى فى الأوسط . ومنها ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » رواه الترمذى والطبرانى . وغير ذلك كثير من الأحاديث الواردة فى حث كل ذى سلطان على العدل واستعمال سلطته فيما ينفع الناس ويصلح حالهم فكل ذى جاه أو سلطان يستعمل سلطانه وجاهه فى سبيل الخير كما ذكرنا يكون له على ذلك أحسن المثوبة وأفضل الجزاء .

وأما المذمومة من شهوة الجاه والسلطان فى ما كان على العكس من ذلك لا يقصد منها خدمة المجتمع ولا إصلاح الدين وإنما يقصد بها خدمة شهواته وسدأ أطماعه والناس فى ذلك مختلفون . فمنهم من يكون همه الاستيلاء على القلوب بأى وسيلة من الوسائل سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة فينتحل لذلك الصفات التى من شأنها جذب القلوب والتأثير على النفوس كذباً وزوراً فظوراً يظهر لهم بمظهر العابد المقرب من الله تعالى المحبوب منه فإذا دعاه أجابه وإذا استعان به أعانه وأنه هو خير وسيلة بين الناس وبين الله فى قضاء الحاجات وإجابة الدعوات . وطوراً يظهر بمظهر الزعيم الذى يتحرق قلبه أسفاً على مصالح العباد والغيور الذى تكاد تذهب نفسه حشرات من أجل صلاحهم وإسعادهم . وطوراً يظهر بمظهر العليم الذى يعرف مخبات الأمور . وخفايا الأسرار . وإن الله قد اختص بمزايا الأولياء والصالحين والعلماء العاملين إلى غير ذلك من الصفات التى تتأثر بها القلوب وتركن اليها النفوس وهو فى الواقع خال من كل فضيلة ولا هم له إلا اصطيداد القلوب ليسخرها فى شهواته ويتنفع بها فى لذاته . ومثل هذا الفريق من الناس شر عظيم على المجتمع الانساق وعدو مبين للانسانية لأن همه يكون منحصرأ فى المحافظة على جاهه الباطل فيسوقه ذلك إلى اتباع الناس فى أهوائهم التى لا يقرها عقل ولا يرضاها دين كى لا ينفصوا من حوله فيزين لهم الباطل ويشوه لهم الحق ويقرهم على الحرام ويقبح لهم الحلال يفعل كل ذلك وهو عالم به ولكنه يخشى على جاهه أن ينصرم وعلى سلطانه أن يزول . وفى ذلك بلاء عظيم على نفسه وعلى خلق الله الذين أضلهم عن سبيل الحق وأقرهم على الباطل وزين لهم أهواءهم وأفسد عقولهم وذلك هو الحسران المبين .

لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إرضاء الناس بما يسخط الله عز وجل نهياً شديداً فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من أسخط الله فى رضا

الناس يحفظ الله عليه وأحفظ عليه من أرضاه في يحفظه ومن أرضى الله في يحفظ الناس رضى الله عنه وأرضى عنه من أحفظه في رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه « رواه الطبراني بإسناد جيد قوى . وروى عن عبد الله بن عصمة بن مالك قال قال رسول الله ﷺ من تحبب إلى الناس بما يحبوه وبارز الله تعالى لقي الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان » رواه الطبراني فكل من يخاف على جاهه وسلطانه فيحيد عن الحق ويتبع الناس في أهوائهم فهو داخل تحت ذلك الوعيد الشديد

وهناك فريق من الناس يكسبون الجاه والسلطان بصفات حقيقية فيهم من علم أو صدق غريمه أو حسن تدبير أو شرف نسب أو نحو ذلك ولكنهم يحبون الجاه والسلطان ليكون لهم بذلك منزلة في النفوس تحفظ لهم أنفسهم وأهلهم من الضيم واعتداء المعتدين ويسهل لهم قضاء ما يحتاجون إليه من ضروريات الحاجات بدون أن يكون لهم غرض في خدمة المجتمع الانساني أو استعمال ذلك الجاه في نصرة الدين . أو تأييد الفضيلة . أو إنقاذ المظلومين . أو إغاثة المكرويين إلى غير ذلك من الأمور التي يمدح من أجلها الجاه والسلطان . وهذا الفريق إذا دعت ضرورة دينية إلى استعمال جاهه كأن رأى منكراً عليه أن يغيره بجاهه فلم يفعل فهو بذلك آثماً فاسقاً . وكذلك إذا توقف على جاهه إغاثة ملهوف . أو إغاثة مكروب . أو إنقاذ إنسان من الهلاك ونحو ذلك فلم يفعل فانه يكون يكون آثماً مذموماً . فقد قال رسول الله ﷺ « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرن على أن يغيروا ثم لا يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » رواه أبو داود وغيره ومثل ذلك كثير في السنة الصحيحة وسيأتى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أما الأحاديث الواردة في إغاثة الملهوفين وقضاء حوائج المسلمين فهي أكثر من أن تحصى . وسيأتى ذكرها في موضعه . ونذكر منها هنا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « مامن عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فתרهم فقد عرض تلك النعمة للزوال » رواه الطبراني بإسناد جيد .

أما إذا لم تدع ضرورة إلى استعمال جاهه ولم يكن عنده ميل إلى استعماله فذلك وإن لم يكن آثماً فاسقاً ولكنه فاسد الطبع غليظ القلب ناقص المروءة لأنه يمكنه أن يربح خيراً كثيراً عند الله تعالى ولكن طبيعته الفاسدة أبت عليه ذلك وحرمته ذلك الخير الكثير والثواب الجزيل .

﴿ وبعد ﴾ فانك تعلم مما تقدم لك أن طباع الناس متباينة في حب شهوة الجاه والسلطان وأن أغراضهم متفاوتة فيه وأن منه ما هو ممدوح نافع وهو ما كان لله وخدمة المجتمع ومنه ما هو مذموم ضار وهو ما كان لسد المطامع وتحصيل الشهوات فواجب العقل بازاء ذلك أن يكون قواماً على تلك الشهوة فلا يتركها تطفئ عليه فينساق أمامها إلى حيث تورده موارد الهلاك وتوقفه مواقف الفساد بل ينبغي أن يتبع منها ما كان فيه صلاح دينه ودنياه ويتجافى ما كان فيه فساد ذلك فإذا وجد منها جموحاً وعدم انقياد له فلا ينهزم أمامها بل عليه أن يذكرها دائماً بالفناء الذي هو من

ضروريات الانسان فليس من العقل أن يعذب عذاباً طويلاً من أجل شهوة فانية تنقضي سريعاً . وليس من الحكمة أن يترك النعيم الدائم من أجل لذة سريعة الزوال . ويضرب لها الامثال بمن عظم جاهه وامتد سلطانه وقويت شوكته واشتدت صولته ثم لم يلبث أن أصبح عظاما مخزواً وتراباً يعلوه الناس بأرجلهم ولم يبق له في الوجود ذكرى بل بحيث ذكره واندرست آثاره حتى كأنه لم يوجد في الحياة الدنيا ولم يكن له شأن فيها . فبهما بلغ المرء من الجاه والسلطان فانه لا بد أن يغنى كما غنى غيره ويهلك كما هلك من كان أكثر منه قوة وأشد بطشاً وأنه لا بد أن يقف بين يدي أسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ويحاسب على ما فعل بجاهه وسلطانه ويسأل عما قدمت يده من خير وشر ثم يحجزى الجزاء الاوفى من نعيم خالد وعذاب أليم . وبذلك يمكنه أن يقف مع تلك الشهوة وقفة حكيمة حازمة فلا يندرها تطفئ عليه فتورده موارد الهلاك والردى وتوقعه في أشد المحن والأرزاء خصوصاً اذا كان يعلم بما يحيط بها من البلوى وما يكتنفها من المصائب والأهوال .

فان صاحب الجاه والسلطان لا يفارقه الوجل والخوف على زوال جاهه ونقصان سلطانه فهو في فزع دائم وقلق مستمر كلما أحس بانصراف القلوب عنه تكدر عيشه وزاد بلاؤه وهمه فهو دائماً بين هواجس نفسانية لا يستطيع الافلات منها وعوامل وهمية تصور له المحال فيذعن لها ويصدقها . وعلى الحقيقة ان من افتتن بحب الشهوة وغرامها كان جديراً بأن يرثى له ويشفق عليه والافئالة وللظهور الذي يكلفه عناء ويحمله بلاء . ماله وللجاه الذي يطلب منه أن يوافق للناس اذا كان النفاق يرضيهم ويزين لهم أهواءهم الباطلة اذا توقف على ذلك استمرار عقيدتهم فيه . ويفعل ما يخالف اعتقاده اذا ترتب عليه دوام القلوب معه بل ماله وللسلطان الذي يكدر من أجله صفوه وينقص عليه عيشه ويحمله من الهموم والأتقال ماتوء تحته الجبال . وأخيراً يعذب عليه عند الله تعالى عذاباً أليماً . لا ريب في أن ذلك هو الحسرة المبين والبلاء العظيم .

أما الذي يطلب الجاه والسلطان ليصلح بهما حال المجتمع الانساني وينصر بهما الحق في كل موطنه ويؤيد بهما دين الله تعالى فذلك هو الذي يظل مطمئن القلب قدير العين لا يرضى الناس ويفضض الله ولا يحفل الا بالحق ولا يعنيه الا الاصلاح وسواء عليه أن يزيد جاهه أو ينقص سلطانه مادام في ذلك رضى الله تعالى وصلاح عباده . ومن تأمل في الأمرين يجد أن الأول شره ضعيف النفس لا ينظر الا للذة في ذاتها فيخسرهما في الدنيا والآخرة . وأما الثاني فانه حازم ذو عفة ونزاهة نفس لا ينظر الا الى ما يترتب على شهوته من المصلحة العامة فينعم بالا في الدنيا والآخرة وينعم باللذة التي يريدتها على وجهها الاكمل والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

حب المدح وكراهة الذم

ويتبع حب الجاه والسلطان حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول وتلك صفات طبيعية في الانسان أيضا فانه مفطور على أن يحب الكمال فكلما جعله كاملا في أعين الناس يكون محبوبا لديه فهو يحب أن يكون كاملا في خلقه كاملا في دينه كاملا في دنياه ظاهرا بين الناس بكل هذه المظاهر لأنه يحب أن يمدحوه ويرضوا عنه ويجلوه وكل ذلك يتبع في الحقيقة حب الجاه والسلطان لأنه انما يفعل ذلك ليسيطر على قلوب الناس ويهيمن عليها فيصبح ذا جاه بينهم وسلطان عليهم وهذا نهاية ما تنصبوا اليه الأنفس بطبيعتها التي خلقها الله عليها لما فيها من صفة الربانية التي تقدم بآياتها

وقد علمت أن شهوة الجاه والسلطان تارة تكون سالحة وتارة تكون فاسدة باعتبار ما يترتب عليها من الآثار وما يكتنفها من الأغراض . وكذلك ما يتبعها من حب المدح وكراهة الذم وحب الظهور وكراهة الخمول

فان كان لغرض شريف وغاية حسنة كان ممدوحا والا كانت مذموما مثلا . ان كان يحب المدح بالحق ليتوصل به الى الاستيلاء على قلوب الناس والسيطرة على أنفسهم ليصلح الفاسد ويقوم المعوج ويسلك بهم سبيل الرشاد وطريق الهداية فذلك ممدوح وكذا اذا كان يحب المدح على الصفات الحسنة ابتهاجا بتقدير الناس للفضيلة ورضاهم عنها ومخاطبتهم على الرذيلة ومجافاتهم اياها لتحيا الفضيلة وتموت الرذيلة بينهم فان ذلك يكون ممدوحا . وكذا اذا كان يحب المدح على الفضيلة ليكون فيها قدوة حسنة للمقتدين ومثالا صالحا للعاملين فان ذلك يكون ممدوحا وهكذا أما اذا كان يحب المدح سواء أكان بحق أم لا ولا غرض منه الا أن يكون عظيما بين الناس ليستخدمهم في شهواته ويستعين بهم على لذاته ولو أفضى ذلك الى الاصطدام بالدين والأخلاق الكريمة كما ينهك في الفصل الذي قبل هذا فان ذلك يكون مذموما أسوأ الذم وبالجمله فالمدار في كل هذا على نية المرء وأغراضه الباطنية كما قال رسول الله ﷺ « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت نيته صلاح حال المسلمين وارشادهم ونصرة الدين كان له أجر على كل ما يورثه لهذا من جاه وسلطان ومدح وظهور ومن كانت نيته تحصيل شهوة أو قضاء لذة أو سد مطمع كان عليه وزر في كل ما يتوصل به الى ذلك . وعلامة ما كان لله تعالى أن لا يبالي صاحبه بالناس في

مواطن الحق فلا يوافقهم على باطل ولا يعينهم على فساد سواء رضوا أو غضبوا وسواء مدحوه أو ذموه ويكون شعاره دائماً مرضاة الله تعالى ونصرة الحق والدين. ويعجبني ما قاله بعض الصوفية في ذلك

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والآنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذي فوق التراب تراب
نسأل الله تعالى أن يصلح أنفسنا ويهدينا الى سواء السبيل انه واسع الفضل والجود

الرياء

وما يتبع شهوة الجاه والسلطان الرياء في عبادة الله تعالى وهو من الأمراض النفسية الخطرة والأوباء الاخلاقية الضارة التي تحتاج الى علاج دائم ويقظة مستمرة فلا يصح للمرء أن يغفل أمره حتى يستفحل شره ويتفاقم خطره ويصبح داء مستعصياً يحبط الاعمال ويعرض صاحبه للشرك بالله الواحد القهار

وهو مأخوذ من الرؤيا لان المرأى يرى الناس — يظهر لهم خصال الخير من العبادة حبا لمحمد وفراراً من ذمهم — كي يستولى بذلك على قلوبهم فيكون له سلطان عليهم يصل به الى لذاته ويستعين به على تحصيل شهواته . فهناك أمور خمسة . مرأى . وهو العابد الذي يظهر خصال الخير . ومرأى وهم الناس الذين يظهر لهم ذلك . ومرأى به وهى تلك الخصال ومرأى لاجله وهو الجاه والسلطان وحب الحمد وكرامة الذم . ورياء وهو قصد اظهار العبادة لذلك الغرض وكما أن الجاه يطلب باظهار العبادة للناس فقد يطلب بغيرها كما تقدم . إلا أن طلبه بالعبادة خص باسم الرياء عادة والمرأون بالعبادة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ المرأون بالعقائد الدينية وهم الذين يظهرون للناس أنهم موحدون يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وهم يعتقدون خلاف ذلك . أو يظهرون لهم أنهم يؤمنون بالغيب من جنة ونار وملائكة ونحو ذلك بما هو معلوم من الدين بالضرورة وهم يعتقدون غير ذلك ولا ريب في أن ذلك كفر يخلد صاحبه في نار جهنم وهو المنافق الذي ورد ذكره في غير موضع من القرآن

الكريم . قال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها) الآية . وقال تعالى (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن) الى غير ذلك من الآيات الواردة في المناقبين ولقد كان النفاق في التوحيد كثيراً في مبدأ الاسلام اما الآن فان النفاق يكثر فيها دون ذلك فانك ترى كثيراً من الناس يذهب بهم قصر النظر وضعف الادراك الى عدم الايمان بكثير من الغيب كالجنة والنار والملائكة ثم هم يخفون عقيدتهم هذه ويظهرون امام الناس بضدها خوفاً من ذمهم وطمعاً فيما عندهم فاذا ما سئحت لهم فرصة لاعلان عقيدتهم لم يتأخروا عن المجاهرة بها وهؤلاء كفرة منافقون لأنهم يعتقدون خلاف ما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو كفر ونفاق . والرياء في العقيدة على ذلك الوجه من أكبر درجات الرياء وأشدّها أثراً . وهناك أقل من ذلك درجة كاعتقاد بعض الامور الشاذة التي تضر بالدين وتورث سوء الظن في عبادة المسلمين كاعتقاد بطلان الفروع الفقهية وضعف ادراك ائمة الدين الذين اجتهدوا في استنباطها ويعتقد جهلاً وغروراً أنه أرقى منهم ادراكاً وأدق منهم نظراً في كتاب الله وسنة رسول الله ومع ذلك فانه يظهر امام الناس بأنه يقلد مذهباً من تلك المذاهب التي يعتقد بطلانها خوفاً من ذمهم وطمعاً فيما عندهم . وهذا وان كان أهون من الأول الا أن صاحبه منافق جبان مغرور يستحق العقاب على كل هذا

﴿القسم الثاني﴾ المراءون بالفرائض الدينية والاركان الشرعية وهؤلاء هم الذين يفعلون اركان الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج امام الناس من اجل غرض من الأغراض التي ذكرت آنفاً فاذا ما خلا الواحد منهم بنفسه لم يعمل شيئاً فلولاً الغرض الذي يريد تحقيقه ما صام ولا صلى ولا حج ولا زكى . وأقبح أنواع الرياء ما فعل للحصول على لذة محرمة كأن يحتال به على الفسق بامرأة أو غلام أو يستعين به على سلب مال ظلماً وعدواناً أو يتوسل به الى ايداء برى في عرضه أو ماله أو دينه ومن يفعل هذا فهو وان كان مسلماً في ظاهر أمره الا أن الاسلام يرى منه في الواقع وقد دلت الاحاديث الصحيحة على نفى الاسلام عنه في غير موضع وسيجزي على عمله هذا أشد الجزاء ويعاقب عليه أسوأ العقاب في يوم يؤخذ فيه المجرمون بالنواصي ويساقون الى نار وقودها الناس والحجارة أما الرياء بالفرائض الدينية للحصول على لذة مباحة كأن يحتال باداء الفرائض على الزوج بامرأة أو الحصول على مال بطريق الهبة ونحوها . ولولا هذا الغرض ما قام بادائها فانه وان كان أهون من الأول ولكنه قبيح جد القبح وفساد لا يعدله فساد لانه شرك بالله تعالى في هذه العبادة بل هو في الحقيقة عبادة للشهوة لا لله تعالى . ففاعله وان كان مقراً بالتوحيد الا أنه سيعذب على ذلك عذابين عذاب على ترك الغرض وعذاب على فعله رياء ونفاقاً . ولو كان عنده مثقال ذرة من الادب والحياء لحجل من خالقه الذي لا ينبغي له أن يعبد سواه أو يشرك معه في عبادته شيئاً ولكنه بدلاً من ذلك قد جعل عبادته وسيلة لاقتناص الملاذ والحصول على الشهوات وفي ذلك يقول الله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) ومما لاشك فيه أن غير الصلاة من الفرائض الدينية مثل الصلاة في ذلك فمن فعل شيئاً منها رياء كان له الرييل عند الله تعالى

وهناك فريق من الناس يؤدي الفرائض للعرضين معا فهو يقصد بها الثواب والقيام بواجبه ويقصد كسب قلوب الناس ليسخرهم في أغراضه وشهواته وهذا وإن كان أقل من الأول قبحا إلا أنه شر وفساد خصوصا إذا كان الغرض الذي يقصده محرما فإن عقابه يكون كعقاب الأول تماما أما إن كان ذلك الغرض مباحا فإن العقاب فيه يكون قاصرا على نفس الرياء لأن عبادة الله تعالى يجب أن تكون خالصة له لا ينبغي أن يخالطها غرض من الأغراض المتعلقة بالشهوات قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

﴿ القسم الثالث ﴾ المراءون بالنوافل وأوصاف العبادة كأن يؤدي الواحد من هؤلاء النوافل في حضرة الناس ويتركها إذا كان وحده أو يجيد أداء الفرض في حضور الناس ولا يجيده إذا كان وحده كأن يشرع في الصلاة منفردا فإذا مارأى الناس أطال فيها وأظهر الخشوع والخضوع والرياء في ذلك كالرياء في غيره فإن كان يقصد به الحصول على شهوة محرمة أو الوصول إلى جاه يظلم به أحدا من عباد الله تعالى كان أثمه عند الله عظيما وعقابه اليأس أما إن كان يقصد به الحصول على شهوة مباحة فهو وإن كان أقل من الأول عقابا ولكنه قبيح مذموم لما علمت أن عبادة الله يجب أن تكون خالصة له فمن يؤديها لغرض من الأغراض فقد أشرك فيها ذلك الغرض مع الله تعالى ومن يفعل ذلك فهو غبي بمقوت يستحق الذم والعقاب لأنه قد استهان بعبادة الله تعالى وجعلها وسيلة للحصول على الأغراض الدنيوية والشهوات الجسدية مع أن النوافل من أجل تشرع للحصول على الثواب الكثير والدرجات الرفيعة عند الله تعالى فأنقلبت عليه شراً ووبالا بفعلها رياء وأصبح يستحق عليها عقابا وذلك فساد وخلل عظيم

﴿ القسم الرابع ﴾ المتحدثون بأعمالهم بعد تمامها كأن يقول الواحد منهم صليت كذا وصمت كذا وفعلت كذا من الخير وهذا وإن كان لا يحبط العمل الذي تم على وجه صحيح إلا أنه ينظر إلى قصده من التحدث بذلك فإن كان فسادا كان محرما وإن كان فرارا من ذم الناس ورغبة في مدحهم بدون أن يقصد منها الوصول إلى غرض غير ذلك كان ملوما من جهة واحدة وهي أنه قصد رآء الناس بطاعة الله وقد علمت أن ذلك لا يجوز

﴿ القسم الخامس ﴾ المراءون بالهيئة والزى تترى الواحد من هؤلاء يتكلف العمل على تحول بدنه واصفرار وجهه كي يظهر بمظهر العابد الذي أضناه السهر وأتحله الصوم ومنهم من يتكلف خفض صوته أو يطرق رأسه أو يغمض عينه أو يترك شعره شعنا أو يطيل لحيته أو يلبس أثوابا تختلف عن أثواب أهله وعشيرته ليلفت إليه أنظار الناس أو يجعل له منها شكلا خاصا يختلف عن عادات الناس الذين يعيش في بيئتهم مادام ذلك يؤثر على نفوسهم ويجعلهم يعتقدون فيه العبادة والزهد وهذا النوع من الرياء يخيف جد السخف لأنه لا يتأثر به إلا ضعاف العقول صغار النفوس كما يتأثرون بالنصايين والمحتالين الذين يخادعون الناس ليغتصبوا أموالهم وأعراضهم بالخيالات الكاذبة والدعوى الباطلة وكل هؤلاء من شرار المفسدين الذين يجب على الناس أن يحذروا شرهم ويمقتوهم ولا يبالوا بهم ولا يحيلهم وأزيائهم إن كانوا يعقلون

وبعد فاعلم أن النية عليها مدار الثواب والعقاب كما علمت مما مضى فإذا كانت المرء يتحدث بعمله الصالح أو يظهره بين الناس ليكون قدوة صالحة لهم ومثالا حسنا يقتدون به لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته بتشر الفضيحة وإحيائها بين الناس من غير أن ينظر إلى مدحهم وذمهم فلا يشبهه عن عمل الصالحات شيء من ذلك . ولا يغريه عليه رضاء أحد من الناس على أن يكون يقظا لا يجعل للغرور والعجب إلى نفسه سبيلا فإن عمله على ذلك الوجه لا يكون داخلًا في باب الرياء بل يكون مطلوبًا وقد يكون واجبا إن تأكد من اقتداء الناس به في عمله الصالح ويكون له على ذلك أحسن الجزاء وأفضل الأجر . وكذلك تنظر الشريعة الإسلامية الكريمة إلى جميع الأعمال فإن ترتب على العمل فساد كان مذموما سواء أكان في ذاته فرضا أم نفلا وإن ترتب عليه صلاح كان ممدوحا لجميع أحكامها وقضاياها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة عن المجتمع الإنساني وكمالها ترمي إلى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتربية النوع الإنساني أحسن تربية وتأديبه أفضل الأدب ويكفي في ذلك قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فعلى العاقل أن ينزه نفسه عن الرياء وأن يطرح الناس جانبا فلا يبالى بمدحهم ولا يخشى من ذمهم وعليه دائما أن يزن ما يحصل عليه من ثقتهم به وما يناله من وراء ذلك من اللذات الزائلة بما يحصل عليه بالعمل الخالص لله تعالى من نعيم خالد وسعادة دائمة فإنه إن فعل ذلك هانت عليه لذات الحياة الدنيا وسهل عليه أمر شهواتها وكان في كل أعماله من قرائض وسنن مخلصا لله تعالى الذى لا يستحق العبادة إلا هو وهو سبحانه لا يضيع عنده مثقال ذرة من العمل الصالح وسيجزى العاملين جنات النعيم

الباب الثاني

في الغضب

تعريفه

هو قوة طبيعية تنور من باطن الإنسان فتحملة على الدفاع عما يحبه من الأغراض وتدفعه إلى البطش بكل ما يؤذيه فإذا اعتدى عليه معتد أو حيل بينه وبين أغراضه تنور تلك القوة فيغلي دمه وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن فيظهر أثره على ظاهر الوجه والعينين فعنى الغضب غليان دم القلب لدفع المؤذيات قبل وقوعها أو الانتقام والتشفى بعد وقوعها على أن الغضب بديهي معروف في الإنسان والحيوان وأثره محسوس فلا يحتاج إلى تعريف